

المحررة .. هي الخلاص

« ان الله الذي وهبنا الحياة ...
وهبنا معها الحرية في نفس اللحظة
ولنفس السبب

جيفرسون

قصة الحرية ..

كان من المقدر للانسانية أن تظل شيئا غسيرا مذكور لو لم يستحوذ على قلبها هذه الحروف الوضاء الكلمة الساحرة الآسرة - الحرية ..

فلما وجدت بردها خاضت من أجلها معركة الدهر - ولا تزال تخوضها .. بيد أن لنشوء هذه المعركة قصة جديرة بالتدبر والامعان ..

انها لم تبدأ كما نحب يوم الباستيل .. بل يوم بدأ الانسان القديم يحس ، ويسمع ، ويرى ..

يوم بدأ له ، وهو يتسلق الاشجار فرارا من السيول ، ويأرز الى الكهوف حذرا من الصواعق ، والوحوش .. أن الطبيعة تتحدى حريره : وتناوىء طموحه .. ومضى يتلفت عن ايمانه وعن شمائله ؛ فلم يجد له نصيرا سواه ..

وانساب في روعة رجوع صوت بعيد مقبل من الازل :

لقد وهبناك الوجود ، ولن نمحك بعده شيئا ؛ فناضل لتعيا .. أو استسلم فتموت .. !

ولم يطل تلبثه وانتظاره ؛ واستبان له هدفه كفلق الصباح ومضى نحوه في اصرار وعزم ..

تري أى هدف آثروا ختار ؟

هو هذا -

● تأمين وجوده ..

● واستثمار هذا الوجود ..

أترانا بعد ملايين السنين نعرف ؛ أو ننشد سوى هذا الهدف المزدوج الجليل ؟

ولكن ضد من - ذهب الانسان القديم يؤمن وجوده ؟

ليس تمت سفاكون يحذرهم؛ ولا اقطاعيون يتهيبهم . .
نعم ، ولكنه ألفى نفسه وجهها لوجه مع الوحوش المتقحمة تعيش
فى الارض باحثه عن ذلك النزىل الجدىد لتماماً بأشلائه
أمعاءها . .

ومن هنا بدأت قصة البغى والمقاومة .

وهناك أملت الوحوش الباغية على الانسانية الناشئة شروطها
دون أن تترك لها حق الاختيار .

فأما أن تختفى فى الجحور والمضارات فتسلم ؛ وأما أن تسير
على ظهر الارض ، وتمشى فى مناكبها فيفتربسها كل ظفر
وناب . .

● تماماً كما يصنع اليوم المستبدون مع رعاياهم . . فأما
ان يتلفهوا بالصمت والتسليم؛ فيسلموا . . وأما أن يحترموا
آدميتهم ؛ وينشدوا لانفسهم حقوق الآدميين ، فتدوسهم
القوة ، ويهصرهم النكال . .

ماذا صنع الانسان؛ والوحوش تجوس خلال كهوفه . . هل
قبع فى ظلامها . . أم خاطر من أجل حرته . . ؟

لقد خرج بحوله المتواضع ؛ وقوته الناشئة . . وصاح
بالوحوش الوقحة صيحة التحدى . . وكان ذلك الاقدام ثمرة
ادراكه لقيمة الحرية .

لقد رآها ضرورة لبقائه ، وأثر أن يموت فى الافق المتراحب
موتة جريئة بأسلة . . على أن ينفق فى جحوره نفوقاً بطيئاً . .

● تماماً - كما يحدث اليوم فى الشعوب المقهورة حين تدب
فيها شجاعة اليأس ، فتغامر بحياتها مغامرة تفضى بها الى
الحياة . .

وكانت خطة الجماعة الانسانية الناشئة أن تتقدمها طليعة

فدائية - ليس مهمتها أن تنصير بل أن تموت .. ولكن بعد أن تكون قد فتحت الطريق أمام الموكب الزاحف الواجب .. وقد كان .. وفي كل رحلة من رحلاتها المتساوقة كانت لها طليعة تلتحم مع الذئب والوحوش النحاما مرا ، ثم يسقط أفرادها صرعى لتكون جثثهم جسرا تعبر عليه الجماعة إلى هدف جديد .
وذات يوم ، والطليعة راكضة دمدمت السماء برعدها ورجومها فازدادت الطليعة ركضا واقتحاما .. وتحدث الرعد والصواعق والرجوم ، وأبت أن تدع الأرض التي وقفت عليها حتى تسلمها للزاحفين عسى أعقابها ..

• تماما كما يصنع اليوم رواد الجماعات المستعبدة ..
اذ يمشون أمامها ، ويرسمون لها الطريق بأفكارهم ، وأقلامهم فيصرعهم البغى - ولكن دماءهم المراقبة تبقى وهجا يرسل على طول الطريق ضوءه وسناه ..

وذاق الانسان طعم الحرية؛ وأحسها احساسا شيرا فجرفيه
البصيرة والخيال

وكان من أعضاء الجماعة الانسانية الاولى من انطبعت فيهم
سلائق الوحوش من طول معاشرتها وكابدوها .. فما
أن استقرت الجماعة في مدنها وقراها حتى كانت هذه الطبائع
تتحفز للظهور والسقوق بعد أن أنهت فترة الاختمار .. وكانت
الوحوش قد غلبت على أمرها ،

ودالت دولتها .. فانطلقت هذه القلة المحاكية الباغية تمثل في
جماعتها - دور البأس الوحشي المنقرض ، وتقمصت الحيوانية
المفترسة أجسادهم كي تعمل عن طريقها .. فشنوا على اخوانهم
الغارث .. واختطفوا الناس واتخذوهم رقيقا .. ثم احتوشوا
الضياع ؛ وأقاموا الاقطاع .. ثم شادوا الامبراطوريات ؛ وجعلوا
أنفسهم أباطرة وفراعين ..

هذا تصور ؛ أو تخيل لنشوء الصراع بين الاستبداد والحرية

وتطوره ؛ لم يكن لنا عنه شيء . . . ليعلم أولئك الذين يستسلمون
الشعوب المهورة اليوم بسوء العذاب انهم ليسوا سوى امتداد
معنوي لوحوش الغاب وهم غرباء عن الانسانية وخلاء عليها
ووظيفتهم في هذه الدنيا تعويق التقدم الذي يعتمد على الحرية
وانطلاق الكرامة الانسانية من وطأة المهانة . . . وفرض قيود التبعية
والخضوع عن البشر . . .

ولقد سارت المعركة مع وحوش آدم . . . كما كانت تسير من قبل
مع وحوش الغاب .

وكان كل ظفر تحققة الجماعة حافزا الى جهاد أشد وأعظم . . .
ولكأنما كتب عليها أن تودع الراحة الى الابد ، وألا تضيع
المصا عن عاتقها حتى تقضى لنفسها أمرا . . . ترى ماذا كان
حظ آبائنا الاقدمين في هذا النضال ؟

لقد كان عجبا . . . أى عجب ، ولكن ليس من طبيعتنا ، كما
انه ليس من صالحنا أن نتباهى بعمل أهل القبور ، وحسبنا فقط
أن نذكر ، ان بعض مؤرخي التطور الانساني يقررون ان
أول حركة قامت في الدنيا ضد الاستبداد السياسي ، والظلم
الاجتماعي كانت في مصر أيام الفراعين . . . وعن مصر أخذ
العالم القديم الدرس فحذقه ، وأبى أن ينساه . . .

وكان لشعب مصر أيام حركته تلك . . . صلاة يتلوها في
المعابد .

— أيتها الآلهة .

ان فرعون يذلنا . . . ويضربنا

والارض التي يقول انكم وهبتموها له قهرقنا . . .

— أيها الآلهة .

اعطونا راحة . . .

واعطونا أرضا . . . !

ان ظهورنا قد انحنت ..

فأقيموها ٠ ٠ !

ولكأنما سرت هذه الترنيمية في وجدان الانسانية بصورة
لا تزال مستسرة خافية ولكنها متطورة نامية .

فلقد وجدنا بعض الشعوب المنتفضة تصلى ابان انتفاضها
فتقول :

قفوا - يا عبيد الارض ٠ ٠

قفوا - يا عبيد الجوع ٠ ٠

سيروا مع البركان ٠ ٠

البركان الذي سيأتي على القديم ، ويمحو الماضي جميعه .

سيروا على الشوك ٠ ٠

سيروا على الجليد ٠ ٠

وقوفا وقوفا أيها العبيد .

ان عدو لنا أراد الدمارا ولارض نـزها اقفارا

فسنلقاه بالجواب الاشد القوى الصدى كقاصف رعد

كسنا البرق يخطف الابصارا

لكن التطور يستحدث وسائله ويجدد أدواته ٠ ٠ فبعد أن كان
لا يحقق أغراضه الا بالقوة والعنف صار من الممكن تحقيقها بالتحول
والاقناع والاناة ٠ ٠ وأصبح يعزف عن الدم - ويبحث عن الزهور .
ويتقزز من الموت ويريد السلام

واذا كانت مصر اليوم وغير مصر من الامم المغلوبة - تريد
الحرية وتسعى اليها ٠ ٠ فأتيجوها أيها الحاكمون أن تسلك
طريق الزهور ، والحب ،

هل الحرية ضرورية ؟

ولكى ينشأ تعاون وثيق بيننا جميعا ؛ حاكمين ومحكومين ،
نحقق عن طريقه أغراضنا المتمثلة فى الحرية والعدل ؛ فالخطوة
الاولى أن نقتنع بفائدة الحرية وحتميتها

أتريدون أن تتصوروا قيمة الحرية . . ؟

تصوروا اذن قيمة الانسان . وليس يكفى أن نتصوره تصورا
دينيا بمعنى انه خليفة الله فى الارض ؛ ومنفذ مشيئته فيها .
بل علينا أن نتصوره مع ذلك تصورا آخر واقعا يبرزه فى الدور
الذى أداه ولا يزال يؤديه فى عمارة الكون ؛ وخلق جميع صنوف
الحضارة المتبدية فيه

هذا الانسان الذى تعلم وعلم ؛ وبني وشاد ، واخترع وأبدع ،
وفكر وتفلسف ، وانتقل بنفسه وبالدينيا معه . من بدائية فجة
غريبة الى رقى عارم ومدنية شامخة . .

هذا الانسان ما كان ليصنع من كل ذلك شيئا - لولا الحرية .
ويوم كان يجد حريته - كانت تجده الحياة . ناصبا فيها حاثا
لها . . فاذا فقد الحرية ؛ افتقدته الحياة ليخصب بوارها فلا تجده
ولا تراه .

ولقد أتى على الفكر الانسانى حين من الدهر وضع فيه تحت
وصاية غبية ؛ ورقابة عمياء ، فلم يكن ثمت أدب ولا فن ولا
اختراع . .

ومثل واحد من مئات المثالات يؤكد هذه الحقيقة ويزكيها . .
فحين اخترع المجهـر . . « ميكروسكوب » وقف خصوم
الفكر والحرية من رجال الدين المسيحى وقالوا :

هذا كفر وهرطقة وسلطوا عدسته على جثمان برغوث . .
فأروه ضخـم الجثة - ففزعوا ؛ ولعنوا الشيطان الرجيم . . ثم
حرموا استعمال المجهر لانه يغير خلق الله ؛ ويضاعف أحجام
الاشياء . . !

لو بقيت هذه الآفات تسيطر على الفكر ، وتضيق على حريته ، أكان
ما نراه اليوم من حضارة غامرة سيكون ؟

ويوم وقف «ابن رشد» يعلن نظرياته ، ويضع « الحقيقة الفلسفية
أزاء الحقيقة الدينية » وقف خصوم الحرية والفكر من رجال
الدين الاسلامي وأغروا به الخليفة وحكموا بخروجه على الدين ..
ودعوا لمكافحته كما تكافح الجرائم والآثام ! ..

فلو بقي هذا الضباب جائما يسد الأفق ؛ ويدول بين الناس
والحرية أكان طريق المعرفة سيئمت أمامها لأحباطها يفهمه
مواكب النهي والمشاعل .. ١٩

ماروع الآية التي قالها جيفرسون :

« ان الله الذي وهبنا الحياة - وهبنا الحرية معها -

في نفس اللحظة ؛ ولنفس السبب »

في نفس اللحظة - لان الحرية روح الحياة ؛ ولا يتأتى أن يكون
لها بدونها وجود .

ولنفس السبب - لان غاية الحياة أن تنطلق محققة الغرض
من وجودها ، ومنفسدة مشيئة الازل الكامنة فيها ..

والحرية كذلك .. بل هي الاداة المفردة لكل ذلك - وما من
تطور مشكور نافع أخذ بيد الاوضاع القديمة للناس في
السياسة والعلم والاجتماع الا كانت الحرية وحدها رائده
وحادية ..

* *

الطمأنينة .. أم الحرية ؟

ولكن الحرية مطلب جليل ؛ وهي لا تمنح يدها كل لأمس -
والايدي الناعمة الرخوة حين تمتد اليها لتنالها ؛ ترتد مقبوضة على
زراية وهوان .. ولا يبلغها سوى الصناديد البواسل ،

القادرين على التوكل والتسور والطموح . .

وقديما قال شاعر عربي .

لا بد العاشق من وقفة ما بين سلوان وبين غرام

فلنسال انفسنا قبل المسير

أريد الحرية بحق . . . ؟ انها لاتأتي وحدها . . بل تصف
بها حشود من المخاوف والاضطراب .

ان مهرها غال لمن يطلبها . . انه الكد والشعب ، والمثابرة
وسماحة الافق وتمكن الاخلاص وهما أشق ما فيه . .

وهناك في الوجة المقابلة للحرية - توجد الطمأنينة . .

طمأنينة الجماد ؛ وسكينة القبور . .

وبهذا النسوع من الطمأنينة نستطيع أن نعيش هادئين . .

لانتالم ؛ لاننا لانحس . .

ولانشكو ، لاننا لانشعر .

ولا نقلق ، لاننا لا نطمح . .

ولانخاف ، لاننا لانخيف . .

افنتار الحرية ، ومعها أثقالها . .

أم نختار الطمأنينة ؛ ومعها أغلالها . . ؟

لعل من الخير أن نستهدى بأولئك الذين اجتازوا نفسي
التجربة من قبلنا . .

فلنصغ لرائد كريم هو « فرانكلين » يقول :

« ان الذي يفرض في مبادئ الحرية وجوهرها ليشتري بها
قدرا تافها من الطمأنينة الموقنة لايسـتـحق الحرية ؛ ولا
الطمأنينة » . . . !

وهذا حق . . وهو ليس فقط غير مستحق للحرية والطمأنينة
بل لن ينالهما أبدا ولن ينال احدهما - لان الطمأنينة المندمجة

على ذلك الهوان لا تكون جديرة باحترامها ؛ ولا تفيؤها ..
واذا كان شعبنا اليوم قد فقد الحرية ؛ فلانه باعها بالطمأنينة ..
ثم اكتشف آخر أمره انه خسر الاثنين معا - الحرية
والطمأنينة .

* *

السنا احرارا ؟ ؟

ولكن كيف نزعم اننا فقدنا الحرية ؟
هل هذا واقع ، أو هو ادعاء وتطلي ؟ ..
واذن فعن أى معنى تعبر هذه الحضارة ؛ وهذا الدستور ،
وهذا البرلمان ، وهذه الصحافة ؟ ..
أليست جميعا مظاهر صدق لما فى بلادنا من حرية وسيادة ؟
وقبل أن أجيب - نعم ؛ أو لا - دعونى أقصص عليكم قصة :
يوم كان « وشنطن » يقود موجا كالجبال من جماهير
المقاتلين فى حرب الاستقلال ؛ برز له جندى وصاح فى انفعالات
صاخبة :

- فى سبيل ماذا تقاتل - ؟

فأجابه وشنطن :

- فى سبيل الحرية ..

وعاد الجندى يسأل :

- وما الحرية التى تستحق كل هذا العناء ؟ .

فأجابه :

- هى أن تقف هكذا - مرفوع الرأس ؛ بارز الصدر ، وتصيح
ملء فمك - أنا أمريكا .. وأمريكا بلادى ..
وعلى حين غفلة من القائد العظيم انتفض الجندى كالمارد ، وضرب

الارض بقدمه ، ورفع رأسه وصاح :

— أنا أمريكا — وأمريكا بلادى

ثم استدار الى « وشنطن » وقال له :

— ها أنذا قلتها .. فقيم ، مرة أخرى ، هذا العناء وهذه
الدماء ... !؟

وهناك صوب الجنوب ، كانت المدفعية الانجليزية الباغية تدك
حصون المحاربين ، وتصليهم سـعيرا .. ودمدمت أصدااء
طلقاتها العاوية على سمع الجندي المشدوه فقال له وشنطن :

— أسمع هذه الدمدمة ؟

ان المدافع الانجليزية تناديك

كذبت . . كذبت . . كذبت

ليست أمريكا .. وليست أمريكا بلادك !

ويوم تقول كلمتك ، ثم لا تتحدأك تلك المدافع ، ولا تكذبك
هذه الطلقات ، فأنت يومئذ حرو هذه هي الحرية !

والآن — هل أنت مصر — ؟ وهل مصر بلادك ؟ هل تمثل
وطنك فيك كيانا حيا بكل مافيه من خير ، وبر ، وفرص ،
وامكانيات ؟

وهل لك من الامر فيه شيء ؟ أم أن الامر كله للناهب الظافر ،
والمستعمر الدخيل ؟ هل أنت مواطن — تمشى على أرضها سيدا
عززا ؟ أم أنت تابع يأخذ بخطامك استبداد مطلق
واستغلال دنى ؟

هل تستطيع أن تقول : لا .. اذا نيطت بها كرامتك ؟ وأن
تقول : نعم .. اذا نيطت بهامرؤتك ؟ هل تقدر أن تقوم
فى بلدك اعوجاجا ، أو تنهنه بغيا ، أو تمس القديم العفن

بتغيير وتصوير ٠٠؟ اذا كنته فانت حمر ٠٠ واذا لم تكنه ،
فانت شيء آخر ٠٠ أنت رعوية تافهة ، وعبودية مسخرة . . ا

ان بداية خلاصنا أن نعرف ، لا أن نخدع ٠٠ وأسباب المعرفة
عندنا كثيرة ، وعناصرها مخشودة - تفتح أعيننا على حقيقة صارخة
تؤكد أننا رعايا في « عزبة » ٠٠ لا مواطنون في دولة . .

وحسينا لذلك - مأساة الشيوخ - ١٠٠ !
وهي مأساة لاتعمل وزرها الوزارة ٠٠ بل السياسة ٠٠ ولا
الحكومة ٠٠ بل روح الحكم ٠٠

فروح الحكم عندنا توجهها الرغبة في السيطرة ، وفي
الانتقام والعبت ٠٠٠

روح الحكم، ونعنى بها السلائق التي تجعل من السلطة التنفيذية
سلطة ارهابية تعز وتذل ، وتولي وتمزل ، هذا الروح الماخن بماله
من تقاليد وضراوة هو الذي لطم الكرامة القومية لطمة لم يكن
منها بد ، ليعلم الذين لا يعلمون ٠٠ أننا سوائم ، لامواطنون ١٠٠
وهذه حقيقة يعرفها الناس ، ولم يك ينقصها لكي تبلغ أوج
اليقين مستوى أن يصدر بهامرسوم ، وتنشر في الوقائع
المصرية ١٠٠ !

وقد لا يعنيننا أن يظل الشيوخ « المشلولون » أعضاء أو أن
يخرجوا ٠٠٠

ولكن الشيء الذي أرجف على سكينتنا هو أن يجرى هذا الاجراء
عقابا لهم ، وتنكيلا بهم من أجل استجواب تسيءاءلوا فيه : عن
أموال للشعب ، كيف انتهبت؟ وأرواح بريئة كيف زهقت ،
وبيعت حياتها اليانعة للشيطان!

وسنرى خلال سيرنا مع هذه السطور مايجعلنا نرتد عاجزين
عن الاقتناع بأن لنا في بلادنا حقوقا ترعى ، وحرمانا تصان .

لكنه لا يأسي .. فلا بد من صنعنا ... وإن طال السفر ..
وسنلاقي الحرية وتلاقينا .. في مهرجان يهيج بأجراس الفوز ،
ويقيم بزهور الانتصار .

لكن علينا أنفسنا ... إن معركة التحرير تبدأ منها ، وفيها

تحرير أنفسنا من أنفسنا ..

قلنا : إنه لا جزع على حريتنا في مستقبلها ، فهي آتية لا ريب
فيها .. ولا خوف عليها من أعدائها .. بل الخوف عليها منا
أنفسنا ..

ماذا يخاصم الحرية ، ويترض سبيلها ؟ ..
إنه الاستبداد ... وهذا الاستبداد نفسه أقرب الطرق
الموصلة إلى الحرية والاستقلال !

فكر قليلا ... تجد الأمر كذلك .. فنحن كلما استبد بنا
الجوع ، المحنا في طلب الطعام .. وكلما نفحتنا سبرات البرد
المحنا في طلب الدثار .. وهكذا كلما لفحننا هجير الظلم
والاستبداد ، اندفعنا في نزاحم إلى ظلال الحرية ، وروضساتها
المونقات .. إن الظلم من صنع المظلوم ، قبل أن يكون من صنع
الظالم .. وعندما تشتد وطأته تبدأ نهايته .. لأن الذين كانوا
يسمحون له بالبقاء وبقائهم أمامه محاولاتهم ، يضيّقون به ذرعا
وتواثيمهم شسجاعة اليأس ، فيخاطروا من أجل الحرية مخاطرة
تخطم عنهم الاغلال ...

لقد وقف « أتاتورك » يوما خطيبا فقال :

ليس على وجه الأرض شيء اسمه الظلم .. فهذا الذي وقع
عليه ما نسميه « ظلما » أما أن يرفضه ، أو يتقبله ..
فإن رفضه ، فقد منع وجوده .. وإن قبله ، وخضع له ، صار
لما وقع عليه مستحقا وأهلا .. فلا يكون مظلوما !

وهذا كلام جليل صادق . واذا عجزنا عن تقبله ، وتصديقه
فلن نعجز عن تصديق «فولتير» وهو يقول :

— ما رأيت كالظفيان شيئاً يسوق الناس الى الحرية سوا
هنيئا — !

لا بأس على حريتنا اذن من جلاديه . . ولكن الخوف عليها
منا وحدنا . .

وقبل أن نطلب الى الآخرين احترام حريتنا ، يجب أن نبدأ
نحن فنحترمها . .

هل يحترم المجتمع لنفسه حرية نفسه . . ؟
ما أثقل عبء الاجابة علينا ونحن نقول : لا . .

فالحقيقة أننا نحن الشعب لم تبلغ بعد الدرجة التي نعامل
الحرية فيها بأضعف الايمان . .

ولسكن لن ندع الحاكمين يتوسلون بهذا الى منح الحرية
عن الشعب ، فهو اذا كان لم يقدرها قدرها ، فلأجل أن حاكميه
وقاهريه له يتيحوا له فرصة تذوقها ، ومعرفة قيمتها ولزومها
— ويوم يذوق سيمرف — ويوم يعرف سيفديها بمثل ما افتداها
به السابقون . .

وكتابتنا هذا محاولة لايجاد تفاهم بين الحرية والشعب . .
وبينها وبين الذين أسرفوا على الناس وعلى أنفسهم بالبغى
والاستبداد .

ولن ننسى ونحن نتحدث عن الحرية أن نقول : انها اذا لم تكن
كبتا وقهرا . . فهي أيضا ليست استهتارا وفوضى . .

ولعل خير ما يصور جغرافيتها هذه القصة الفرنسية :

كان أحد الرجلين يجلس على أريكة باحدى الحدائق العامة ،
وعن يمينه جلس الآخر ، وليس بينهما معرفة ولا الاف . .

وتشاءب الجار وبسط ذراعيه وهو يتمطى ، فصسكت اطراف
أنامله ذؤابة أنف جاره . فغضب ونبه المتمطى للياقة المطلوبة ..
فأجابه الآخر : أنا حر .. !

فقال له صاحبه : نعم أنت حر .. ولكن حرية يدك تنتهى
حيث تبدأ حرية أنفى .. !

وذهبت مثلاً بليغا .. فحواه أن حريتك تنتهى حيث تبدأ
حريتى . وحريتى تنتهى حيث تبدأ حرية الآخرين - والآن -
لنذكر هذا جيداً ..

ان المواطنة فى تمرس الحرية بين افراد المجتمع بعضهم مع بعض ،
وبين المجتمع والدولة هى خير ما يحقق لنا منافعها جميعاً .
فواجب الجماهير اذن حىال الحرية هو :
- أن تؤمن بقيمتها وضرورتها

- وأن توائم بين الحقوق المشتركة فيها ..
والطريق الى الاول - أن تفهم انه لا خطر من الحرية على الدين ،
ولا على الفضيلة ، ولا على مصالحها .. وأن الخطر على
هذه جميعاً انما يهب من ربح الكبت ، وضيق الافق ، ونضوب
التسامح ..

والطريق الى الثانى - أن يمارس كل فرد حريته فعلاً ،
وفوراً ، ودائماً - وسوف نخطئ ويغنى بعضنا على بعض
ولكننا أخيراً سنتعلم من الخطأ ، ونفيد من التجربة وتصحو فينا
فطرة الحرية فتمضى سوية مستقيمة لا تضل ، ولا تتجائف
لعدوان ..

وواجب الحكومة تجاه الحرية ان تكون فى خدمتها ، وان تصوغ
قوانينها ، وتمارس سلطتها على وجه ينمى الحرية لا يضائلها .
والآن - لنمض معنا - مستعرضين الحرية فى أزيائها

المتعددة - مبتدئين بما بدأ الله به ..

لقد تكلمنا فى الفصل الاول عن « الفرائز » .. هذه التى خلقها الله لتكون طاقة دافعة ، فاستجالت بفضل الظلم والجهل الى أغلال معقدة ، وعوائق مانعة .. والفرائز هى القوى التى نظم الله حولها الحياة الانسانية بكافة ضروب نشاطها ، بل ناطق بها وجهة الانسانية نفسها ..

واطلاق سراح الحرية وهن باطلاق سراحها فمشكلتنا تتمثل فيها ، وخلصنا يبدأ منها

وسنجد الآن أن وراء كل غريزة مضطهدة حرية مضطهدة كذلك ، والربط بين الحرية والغريزة ليس من صنعنا - بل من صنع الله - وهو قمين أن يوفر علينا كل محاولة سفیهة لقمع الحريات .. لأنها على هذا النحو ليست شيئاً هينا يقضى عليه البطش .. بل هى وثيقة الصلات بأعرق وأعماق ما فى الانسانية من قوة وأصرار ، وهى الغريزة ..

واذن - دعوها فانها مأمورة !

حين نواجه حقيقتنا المنعكسة على مرآة الحوادث الماثلة - نجد شعباً مخفقاً .. يدور حول وهم وعجز - حتى اذا أدركه التعب خر على الارض ليطويه سمبات عميق .. وأعجب ما فى أمتنا وجماهيرنا أنها على بينة مما تريد أن تفعل .. ومع هذا فقد عميت عليها السبل ، ومضت تضرب فى كفاحها وديهاها على غير هدى ..!!

ترى - ماذا يضلها ، ويخلد بها الى الارض ، والحيرة والاستسلام ..

أهو فقط ظلم الظالمين ؟ ..

اذن ، فما بالها لا تتحرك حين تمر بها فرص يرخى فيها

المستعبدون الزمام .. ؟ وتكتفى بأن تشململ تملللا غامضلا ، لا
ينطلق بها الى هدف واضح .. وتخرج انفاسها الكظيمة المضغوطة
فيسمع لها خوار .. ثم فجأة تهجج ، وتأرز الى الوند صابرة ،
وربما شاكرة .. ؟

ان آفة الشعب في دخيلته في نفسه الباطنة .. وكل جهد
يبدل للاصلاح بعيدا عن نفسه ، فهو جهد باطل مضيع .. ان في
اعماق ضميره شيئا يدعو لمقاومة الحياة .. وفي أقصى نفسه
مرارة ويأس ..

وفي وجدانه شعور الريبة بذاته ، وامكانياته ، ومستقبله
وفي عقله الباطن جبن ، وهوس ، وانقسام .. وشخصيته
كلها ليست أكثر من اطار يضم هذه المساويء جميعا .. ومرد
ذلك لا جرم ، اطفاء نور الحياة فينا وتحطيم ارادتها بمصادرة
منابها وردمها ..

فلنطلق غرائزنا هذه .. وهي ستهدي نفسها ، وتهدينا معها
الى الحرية والسيادة .

ان الحرية أجمل وأكبر من أن يضمنها قانون أو دستور أو
حكومة .. واذا لم تستقر جذورها في قلوب المواطنين فلن يكون
لها اغصان ولا ظلال ..

فلنبدا من هنا - من غرائزنا المصفدة المضطهدة الحاقدة -
نفض عنها قيودها ، ونحطم سلاسلها .

ولن نتحدث عنها جميعا ، كما رأيت قبلا - وإنما نسوق
الحديث عن بعضها الذي له بحياتنا ، كشعب مكافح ، أوثق
الصلات ، وله بحريتنا كأمة مستعبدة أدق الوشائج ..

فريزة الفئسب - حرية النقد ..

ينا في الفصل الاول اثر اضطهاد هذه الفريزة في انطوائها
على حقد ، واندمالها على تربص .

والحكومات حين تحاربها - فسلاحتها القانون .. فقانون يحرم
التظاهر ، وآخر يحرم الاضراب وثالث يحرم النقد والكلام ..
والحقيقة أن وضع القوانين سهل ميسور ، وقد يكون تنفيذها
كذلك سهلا وميسورا ..

وايست المشكلة في وضعها .. وانما في جدواها .. ان القانون
هنا - يحارب الطبيعة .. يحارب الفريزة .. يحارب قانونا
آخر . وضعه الخلاق العظيم ، وصقلته القرون .. وهو لذلك
مغلوب على أمره ، ولو بعد حين

وغريزة الغضب تتسرب طاقتها تسربا مهذبا مأمونا في
المجتمعات والامم بتمكينها من حرية النقد - فكبت هذه الحرية
في شعب تحد لقوة أصيلة فيه أصالة الانسانية نفسها، وتصفية
لطاقته تلعب دورا هاما في بناء الشعوب .

وللعالم الجليل « هاري أمرسون فوردك » في كتابه
« (١) كيف تكون رجلا حقا » كلمات هادية مضيئة تكشف لنا
عن قيمة الغضب الذي تكلم حكوماتنا أفواهه ، وتضاعف
قيوده . فلنستمع اليه :

« .. والنزوع الى الخصام من أعماق الحوافز العاطفية في
الطبيعة الانسانية - والميل للعراك لازم لبقاء الحياة الانسانية
وتقدمها ، وترجم روح القتال نفسها بالعمل الشاق، وبالشجاعة
في مواجهة المصاعب الشخصية، وفي كل مظاهر الهجوم على
المساوي الاجتماعية المستقرة .

« .. ولكننا اذا أرخينا الحبل لهذا الحافز العاطفي الذي
لا غنى عنه - كانت النتيجة مدمرة ، فان البغضاء المزمعة ،
أو امساك الحق في القلب يمزق صاحبه - والفيظ الشديد قد

يورث مرضا كما تفعل الجرثومة .

« .. واذا كان من سوء حظنا أن يكون لنا أعداء فإن شر ما يمكننا أن نصنعه لا للعدو ، بل لأنفسنا - هو أن ندع الفيض يستقر ، والكراهة تزمن .. »

« - حسين لامت سيدة - إبراهيم لتكون - على عبارة كريمة قالها عن أهل الجنوب قائلة له :

« كان الاولى بك أن تتمنى القضاء على أعدائك .. أجابها وهو موفور الصحة العاطفية والاخلاقية ، ماذا تقولين يا سيدتي ؟ ألا ترين أنني أقضى عليهم حين أجعلهم أصدقاء لي ؟ »
أفلا نستطيع - حكومة وشعبا ، أن يكون بعضنا لبعض كإبراهيم نكون مع أهل الجنوب فتقضى الحكومة على الجماهير المنتفضة باتخاذها صديقا .. ؟

ان السبيل لذلك متمثل في اطلاق حرية النقد فهي الانفعال السامى لفريزة الغضب ..

وان الجماهير في بلادنا لتعامل معاملة القاصر .. أو معاملة الايتام في مأدبة اللئام - فهي تسرق ، وتضرب وتباع مصالحها ثم يحرم عليها أن تقول لظالمها ، وسارقها ، هذا حرام .. !!

وهل يمكن أن تحترم أمة أو تقدس ، وهي لا تأتمر بمعروف ، ولا تتناهى عن منكر . ؟

ان الدستور يعطى الأمة هذا الحق - والقائمون على تنفيذ الدستور يسلبون هذا الحق . !

والشعب والحكومة شريكان في اقتراف هذه الجريمة . فكلاهما يرفض أن تنقد شعائره ونظمه وتقاليده - وحين أنقد أنا ، أو أنت ، طغيان الاستبداد الذى يطانا بقوائمه الغلاظ .. وغباء الحكومات وسفها وسوء استعمال سلطتها .. تلف حول عنقك حبال الاتهام ب « قلب نظام الحكم »

أفيكون كل نقد لسلطاننا السياسية والاجتماعية قلبا
لنظام الحكم . . ؟

الا فلنتدبر هذه الحقيقة جيدا . .

لقد كانت الديموقراطية يوم بزغت « قلبا لنظام الحكم » بل
لنظام الدنيا جميعها . ثم صارت اليوم مهوى أفئدة البشر جميعا
وفى مصر بالذات كانت المطالبة بالنظام النيابى خيانة وقلبا لنظام
الحكم . ثم اذا هو اليوم مناط الامل والرجاء . .

وكانت الحركة التى قادها الشيخ الشرقاوى ، والسيد عمر
مكرم لتنصيب « محمد على » مؤسس الاسرة العلوية ، على
مصر . كانت هذه الحركة يومها خيانة للوالى القائم ، وقلبا لنظام
الحكم . .

لذلك نرى خورشيد باشا يخطبهما عندما طالباه بالتنازل
باسم الشعب قائلا :

« . . انى مولى من قبل السلطان ، فلا أعزل بأمر
الفلاحين . . » واتهمها بالخيانة واتهم الشعب كله - الفلاحين -
بمحاولة قلب نظام الحكم . . !

ولكن الفلاحين . . أصروا على أن ينالوا شرف هذه الخيانة
العظمى ، ووقعوا العريضة التى رفعت للباب العالى طالبين فيها
تولية « محمد على باشا »

وهكذا نلاحظ أن كل قديم عفن يتهم القوى البازغة التى
يشمرها الوعى والتطور بالخيانة العظمى وقلب نظام الحكم . . !
أريد المرجفون بهذا الاتهام أن يفهمونا أنه لا يتم قط تحول
نافع الا على اكتاف الخيانة العظمى . . ؟

أو فليوضحوا لنا مغزى هذا الارجاف ؟

اننا جميعا على يقين بأن ولاية محمد على باشا ، كانت فى اوانها

انقاذاً للبلاد من فساد كبير .. ونهض ههنا الاعتقاد في قلوب
زعماء الشعب وعقولهم فعملوا وفقه .. ولكن الحكم القائم يومذاك
فسر عملهم المجيد هذا بأنه جريمة وانتقاض ..

افئذ حواننا اليوم تهذيباً حكمنا ، واستحداث النظم
والقواعد التي تلائم تطورنا وطموحنا ، وكان من وسائلنا
ذلك النقد الذي يستهدف البناء والانشاء .. نجابه بنفس
الاتهام التقليدي - الخيانة - وقلب نظام الحكم ..!

ان الحكومة تسوء نفسها كثيراً وتسوء بلادها حين تزجرنا عن
النقد وتمنع عنا حقنا فيه .. وهي اذ تسكت أقلامنا ، وتخنق
همسنا - تفري بنفسها وبلادها الناقدين الاجانب الذين يكتبون
عنا مالم مزج بماء المحيط لتركة آسنا مكرأ ...

وعندنا مثل ذلك - الكاتب الفرنسي « كوكتو » .. لقد
استضيف في بلادنا - وكان من حسن حظ مصر أن يهبط
« كوكتو » في ضيافة فتى مترف حديث عهد بميراث ضخ سمين
.. فبسط للضيف موائد الكرم الباذخ تنوء بما فوقها من مطاعم
ومشارب .. وهياً له الكثير الطيب من اللبالي الحمراء التي
يجاهد فيها المترفون جهاد امبرورا ..!

ولم ينس « كوكتو » وقد جاء مصر - ان يرجو مضيفه كي
يمكنه من رؤية « الحلقة المفقودة » في تاريخ الانسان - تلك التي
تتمثل في ملايين الفلاحين والصناعيين المضرجين .. وعلى
هذه النشارات الادمية ركز « كوكتو » عدسته طويلاً ..
فوعى كل شيء ، وعسرف كل شيء ..!

ولما عاد الى بلاده فرنسا . أخرج كتابه المعروف « في بلاد
معلش » ..!! ولم نر هذا الكتاب طبعاً ، فقد صادرت
حكومتنا الرشيدة .. صونا لسمعة مصر امام اهل مصر ..!

اما العالم كله فقد قرأه وتلاه . . ومثـل « كوكتو » آخرون
وآخرون . .

والعجيب ان حكوماتنا خارقة القدرة في محاربة النقد ، فهي
لا تخرسه داخل حدودها فحسب ، بل تتعقبه خارج
الحدود ايضا - ولكل بلد وسيلته اللائقة به . . فعندنا مثلا يحارب
النقد بالسجن والتشريد . . وعندنا غيرنا من البلاد الاخرى
تتعقبه بالاغراء والرشوة . . ولعلنا لم ننس بعدنأ ذلك الباشا
المصرى الذى ذهب فى الصيف الماضى الى جريدة انجليزية كبرى ،
وزار المحرر المختص بشئون الشرق الاوسط . . والتمس منه
ان تسكت الصحيفة عن نقد الاوضاع الفاسدة فى مصر . .
وفى نهاية حديثه قدم للمحرر « شيكا » بمائة ألف جنيه . . !
ونادى المحرر حاجبه وقال له:

اصحب الباشا الى الخارج . . فانه يجهل الطريق . . !

نعم . . انه يجهل الطريق . . ولقد علمه الفساد المتفشى فى
بلادنا ان كل الطرق توصل الى روما ، وان الذمم تشتري بالمال
فى غير مصر من بلاد الله ، ففعل فعلته وهو من الضالين . . !

وليت الحكومات هى التى تحارب وحدها حرية النقد . .
بل ان الشعب كذلك ايضا . . !

فحين تنقد من تقاليد الموروثة وجهالاته المزمنة ما تعتقد انه
ضار به ، عائق له . . ترتفع اصوات كثيرة حاملة اليك نفحة
هائلة من اللعنات والتمنيات . . !

يجب أن نروض أنفسنا على تقبل النقد متأسين بالرجل
العظيم عمر بن الخطاب الذى كان يقول : رحم الله من اهـدى الى
عيوب نفسه .

وان الصخرة التى تلقى فى طريق حرية النقد لترطم بها -
لهى التقاليد . . .

فتقاليدنا السياسية تصمدنا عن نقدها ومحاولة اصلاحها . .
وتقاليدنا الاقتصادية تزجرنا عن نفس الفاية . . وتقاليدنا
الدينية تطارد كل محاولة نبيلة لاصلاح دينى . . وتقاليدنا
الاجتماعية تريد ان تستعصى على التحوير والتطوير . . !
والحقيقة التى تفرب عن بانهاى ان الاديان جميعها لم تأت الا
لتدمدم على التقاليد ، وتقتلعها ثم تذروها مع الريح . .

ولو كان للتقاليد سلطان وحرمة ما قامت للاسلام نفسه
قائمة . فانه لم يحارب بشيء كما حارب بالتقاليد . . لذلك ذهب
القرآن الكريم يصفع انصارها - انصار القدم والبلى والتفنن ،
ويسخر من الذين قالوا : « انا وجدنا آباءنا على امة وانا على
آثارهم مقتدون » !

فلحساب من . . تستبد بحرياتنا اليوم طائفة عفنة من
تقاليد الحكم وتقاليد الاجتماع ؟

لحساب الدين . . ؟ - ان الدين كما رأينا يرى فى الركون
اليها سفها . . بل يراه جريمة يبوء صاحبها بغضب الله وازدراءه
. . ففى حديث صحيح يقول الرسول :

« انى ممسك بحجزكم عن النار - هلم عن النار - هلم عن
النار . ولكنكم تقاحمون فيها تقاحم الفراش او الجنادب ،
فأوشك ان ارسل بحجزكم - وانا فرطكم على الحوض تردون على
معا واشتاتا ، فأعرفكم بسيماكم واسمائكم كما يعرف الرجل
الغريبة من الابل فى ابله ، ويذهب بكم ذات الشمال ، وانا شد فيكم
وب العالمين ، فأقول أى رب . أمتى . فيقول : يا محمد

انك لا تدري ما حدثوا من بعدك . انهم كانوا يمشون بعدك
القهقرى على اعقابهم » . . !

فهل الركون الى التقاليد الاتقهقر على الاعقاب ، وتخلف
معيب مهلك - عن موكب التقدم والحياة . . ؟ !

أم هي لحساب الدنيا إذا لم يكن لحساب الدين . . ؟
لكن الدنيا لا تقوم على الجمود بل على التغيير المتبادل والتجديد
المستمر . . ولنضرب لذلك مثلاً :

فقد كانت البيوت الأرستقراطية المترفة مختصة دون سواها بتوريد
الحكام والوزراء والرؤساء . فإذا بأموال السيادة الشمسية ترفع
إلى القمة إذاساً لم تكن التقاليد لتعترف بمجرد وجودهم ، ولم
تكن العين لتقع عليهم في زحام الحياة . .

فابن الخطيب « فنسيان أوربول » يرأس جمهورية فرنسا . .
وابن الحداد « ستالين » يتربع فوق الكرملين في روسيا . .
وغاسل طباق الصينلية « ترومان » يصير الرجل الأول
في أمريكا . .

وسائق القطار « بيفن » يوجه السياسة الخارجية لبريطانيا
العظمى . .

وهكذا في بقية جوانب الحياة لا قدم للتقاليد ولا قداسة . .
ولكل ساعة تقاليدها المستحدثة وأوضاعها الملائمة .

غريزة النفور . . حرية المعارضة . . وحرية الإرادة

وإذا انتقلنا من حرية النقد إلى حرية المعارضة وحرية الإرادة
وجدنا وراء هذين اللونين من الحرية غريزة أخرى قوية ماضية
هي - غريزة النفور . وأنفعالها المشروع النافع المعارضة، والإرادة
فانت حين تنفس من شيء مقيت ينتابك إحساس مزدوج
بالاعراض عنه . . ثم بإرادة تغييره أو تحديه . .

ولكن الاعراض موقف سلبي إن صليح في المواقف الفردية
لا يصلح فيما يمس الأمة والمجتمع وهنالك يستعاض عنه بالمعارضة
والتقويم . .

ماذا كان يعنى الرسول بحديثه الكريم . . ؟

« انه سيكون بعضى أمراء من صصدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس منى ، ولست منه ، وليس بوارد على الحوض - ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو منى ، وأنا منه ، وهو وارد على الحوض »

وماذا كان يعنى عمر حين دعا الناس ان يقسموه إذا أعوج ، ويرشدوه إذا انحرف . .

ثم ما كان يعنى ستالين عندما عزل احد اقطاب حكومته وحزبه وكتب فى اسباب العزل : « انه يملقنى دائما ، ولا يعارضنى ابدا » . . !

ليس لهذا كله سوى دلالة واحدة هى التقدير الواعى الكريم لفريزة النفور . .

انها اذا طمست فى امة اوضلت - صار امر هذه الامة فرطا - لذلك رأينا الاسلام يزكى حماسها ويشير انتباهها ، فيقول الرسول :

« لا تمروا بديار الدين ظلموا انفسهم الا وانتم باكون . خشية ان يصيبكم ما اصابهم » . . !

ثم يقول :

« اذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك ان يهكم الله بعذاب » . . !

ان عبارة « ولم تأخذوا على يديه » هى الانفصال المحتوم لفريزة النفور - هى المعارضة والتقويم . .

وحرية المعارضة فى بلادنا عملة زائفة يحظر تداولها ! وبينما نجد كلمة « المعارضة » فى بلاد ك إنجلترا عنوانا لهيئة سياسية تحترمها الحكومة وتنتفع بدكاائها . . اذابها فى مصر عنوان على طائفة منبوذة مضطهدة - هكذا دائما فى كل حكم ، وعهد . . !

ولقد قصصنا عليك من قبل، كيف طردت المعارضة البرلمانية بمجلس الشيوخ كما يطرد بواب عمارة ، او خادم - لانهم اجترأوا على رفع الستار عن بعض الذمم الجارحة التي شربت في كؤوس النصر والاستهتار دماء الابرياء ، ودموع اليتامى و ثكل الايامى . . !

ان المعارضة البرلمانية قوام الحياة النيابية ، و اى امتهان لها او تفويض لسلطانها ، امتهان للنظام النيابى جميعه وتفويض له

والامر كما يقول « ج . بيورى » فى كتابه - حرية الفكر :

« ان الشر الناجم عن تفهقر الحرية الى وراء ، اعظم من اى شر وقتى مهما بلغ من الاستطارة والايداء . . »

ان حرية المعارضة وحرية الارادة تأخذان فى الدول المتحضرة مظهرا يبعث على الدهشة والعجب . .

فترى الحكومة البلجيكية التى بذلت جهدا مضنيا لتعيد الملك « ليوبولد » الى عرشه - تقف امام معارضة المعارضين من الشعب منجنية مستسلمة . . حتى لقد تركت الجماهير المتدافعة كالموج تصرخ فى وجه الملك العائد من منفاه « مقام غير سعيد يالليوبولد . . ارجع الى منفاك يالليوبولد » . . !

بل أن أروع من ذلك قد كان . فكتبت جريدة الاهرام يومذاك أن مدينة « ايبج » أعلنت الحداد من أجل عودة الملك - ونكست العلم الوطنى فوق مبنى المحافظة!

وخرج المعارضون فى مظاهرة كبرى يقودها « بول هنرى سباك » معلنة رأيها الصريح فى عودة الملك - وبعد يومين اثنين كان الملك يوقع ورقة التنازل عن العرش . وكان « بول هنرى سباك » يتحدث مع مراسل « آخر لحظه » عن المأساة فيقول : « عند ما يصبح الملك هدفا لسمخط الشعب ، يصير على الفور غير صالح لان يكون ملكا . ولقد شعر الملك ليوبولد بأنه لا يستطيع الجلوس على العرش الا وهو فى حماية المدافع الرشاشة . .

« وهل تستطيع أن تتصور ملكا يجلس على عرشه في حماية الحراب .. ؟ » - ثم يتحدث عن الملك الجديد قائلا : - « ان الأمير بودوان في مركز لا يحسد عليه ، وهو يفتقر الى المرات والخبرة . ونحن نطلب منه ثلاثة أشياء فقط .. »

- أن يحترم مبادئ الدستور .

وان يعيد السلام والكرامة الى شعبنا الجريح ..

وأن يكون ملكا سعيدا ، فأنا الملوك السعداء يخلقون شعوبا سعيدة .. » !

انا نريد ان نظفر في بلادنا بمثل هذه الجراءة في معارضة السلطة التنفيذية والحاكمين المسؤولين . ونريد أن تتوفر لنا حرية الارادة في أن نصنع حياتنا كما نشاء نحن لا كما يشاء الآخرون . والذين لا يمكنوننا من حرية المعارضة يريدون أن تكون مصر بحق « بلاد معلش » ..

لان العجز حين يرين على ارادة المستضعفين ، وترعرع السنهم بكلمة الحق يعارضون بها البغي والفساد لا يملكون سوى هذه الكلمة الرثة « معلش » !

والحاكم الصالح النظيف الشجاع هو الذي تردده المعارضة برلمانية وشعبية في عهده وترعرع . لانه لا يخافها ولا يخشاها .

ولقد كان عمر من هذا الطراز حين قيل له ، اتق الله في الناس يا عمر - فقال :

ويل لكم ان لم تقولوها - وويل لنا اذا لم نسمعها .. !

وكذلك كان « لنكون » حين قال :

« اذا أدركتم أبصاركم في الوطن ، فرأيتم لي فيسه عملا جليلا . فاذكروا الذين كانوا يخالفونني في الرأي ويعارضونني .. لقد كانوا من ورائي سياطا تلهبني ، ومن أمامي أضواء تنير لي الطريق » .. !

المشاركة الوجدانية حرية الفكر ، وحرية الرأي ..

ان نشاط «المشاركة الوجدانية» يترجم في حياة المجتمع بتضام
الشعب والحكومة في حمل التبعات وتلاقيهما في الاحساس
والشعور ..

والعواطف - كما يقولون - معدية ، ولا تقف عندواها امام
حجر أو حصار .. فاذا شاعت في الامة عواطف الثقة والمحبة استقام
أمرها .. واذا حطمتها عواطف الشك والمقت - طاش سببها ،
وخاب فآلها ..

ولقد أدركت قوى الشر العاملة الناصبة ، هذه الحقيقة . فتوسلت
الى تمزيقنا بترييب المواطنين بعضهم في بعض .. وتشويه
سمعة الرواد المخلصين حتى لا تستجيب لهم الجماهير وتستغل
جهل الناس بحقائق الدين ، وحقائق الدنيا .. لماذا صارت
الامة أشتاتا ومزقا ؟ تحسبها جميعا .. بل لا تحسبها ..
وقلوبها شتى .. ؟

لان نزعة المشاركة قد كظمت فيها وأحالتها طول الارغام الى نومة
لشتيت وتخذيل .. !
ولماذا كان ذلك كذلك ؟

لان المجتمع لم يحاول أن يؤمن بحرية الفكر ، ويقدرها قدرها -
ولو قد فعل لفشيت الثقة ، وأخى بينه التسامح ، وسما به الفكر
الطليق الى سماوات من فوقها سماوات ..

لابد اذن - أن يقر في أذهاننا وضمائرنا الاحترام الاكيد لحرية
التفكير والتعبير . ويومئذ سيقبل بعضنا على بعض ، ونتخذ من
الخلافا الفكرى مزية .. ويضحى بعضنا لبعض ظهيرا ..

فلتفكر أنت كما تشاء - ولتدع غيرك يفكر كما يشاء ، دون أن
نجعل من مناطق التفكير حلالا وحراما - فالفكر وحده هو الذي
سيقرر في حرية كاملة . حلها أو حرمتها .. ان للفكر الانساني

امكانيات ثره هائلة ، وهو أداة الارادة الكبرى للكشف عما في كون
المادة ، وكون المعرفة من اركان وكنوز ..

والعالم الحديث زاخر بالمذاهب والأفكار ، ونحن في هذا العالم
جزء منه يصيبنا ما أصابه طوعاً أو كرهاً - فإذا لم نخط بعقليتنا
وأفكاره خبراً ، ونسارع الى مسايرته أو مسابقتها - إذا كانت
مسايرته بدعة وضللاً . فسنظل مكاننا - لنا أعين لا تبصر
بها ، ولنا آذان لا نسمع بها ، ولنا قلوب لا نفقه بها .. حتى يمر بنا
الموكب وهو ماض الى غايته فسنظل مكاننا - لنا أعين لا تبصر
اللقيط ، ويضعنا تحت الوصاية حتى يروضنا على تقبل الحياة
والتفاعل معها ..

ليس هذا - هو منطق الاستعمار حين يثر على أمة
مظلة لا تحترم ما أودعه الله فيها من عقل وقدرات .. ؟ !

ان بلادنا محرومة من أن تفكر ، لانها محرومة من أن تقر -
ومحرومة من أن تمير وتقول .. وهي ممنوعة من ذلك كله حرصاً
على سلامة الدولة ، وسلامة الهيئة الاجتماعية .. !!

أصحيح هذا - أم خداع وهراء .. ؟

ان الفكر الحر لا يكون خطراً على الدولة والمجتمع أبداً . وانما
مصدر الخطورة فكر غير حر .. فكر مكره ، مضطهد ، موقوف ..

ان حكوماتنا تتهيب طبيعة بعض الافكار وتأثيرها ، فتحرمها .
وسنفترض اخلاصها في هذا التحريم ، ونظافة بواعثها . ثم
ندعوها لتسمع من « ميلل » في كتابه الحرية نقاشاً هادئاً بليفاً .
» .. هذه الفكرة المراد تحريمها صواب أم خطأ ؟

« ان تلك صواباً لم حظرها ، فقد حرمتنا المجتمع حقها فيها ..
وسلبنا منه إحدى حقائقه الكبرى

« وان كانت خطأ ، فمن أين لنا معرفة ذلك ؟

» يجب لكي نحكم عليها بالتصويب أو التخطئة ان نمتحنها

فى جميع الظروف ، وتتاح لنا الحرية الكاملة فى مناقشتها ،
ومناقضتها .. وبغير ذلك لا يستطيع كائن ذو مواهب
انسانية أن يتثبت تثبتا عقليا من صواب فكرة أو خطئها ..»
ان هذا القول البليغ ليجهز على أراجيف الذين يحرمون
المذاهب والافكار حرصا على دولة ، أو مجتمع ، أو فضيلة ..
فالفكرة التى تنتصر على النقاش والمعارضة والنقد انتصارا مستمدا
من صدقها وأحقيتها هى التى يجب أن تنظم تقاليد الدولة
حولها ، ويصاغ المجتمع والفضيلة وفقها .. لا أن تحظر وتصادر
لكن ، كيف لا تكون حرية الفكر والرأى خطرا على الدولة
وهى المسئولة عن كل ما وقع فى التاريخ من تغير وتطور وانقلاب ؟
وجوابنا - أن هذه - مزية الحرية لا خطيئتها - فكل ما
أحدثته من تغير وتطور تم لصالح الانسانية وأفضى لاسعادها ..
وأما ما حدث من انقلابات صاغت التاريخ وعينت له وجهته ،
فلم تتم جميعها على وجه غير مشروع .. والذى وقع منها على
وجه محذور - كان القانون فى انتظاره يصادمه ، ويقف دون
غايته - وهى مصادمة محترمة حتى من الحرية نفسها مادامت
بعيدة عن الافراط والتفريط يقول «ج. بيورى» (١)

«ان الحالات التى يكون تدخل الحكومة فيها ضد الحرية سليما ،
هى حالات يلتبس فيها الحق بالباطل ..، فلو حدث مثلا
تحريض مباشر على أعمال عنف معينة لكان هناك مجال مشروع
لتدخل الحكومة .. ولكن الباعث على التحريض ينبغى أن يكون
متعمدا ومباشرا ..»

«فاذا ألفت كتابا ، وهاجمت فيه الأنظمة الحالية ، ودعوت
الى نظرية فوضوية ، ثم قرأه رجل فقمام وأعلن التمرد ،
وارتكب جريمة .. فقد يستنتج من هذا أن كتابى هو الذى جعل

الرجل فوضويا وجانيا - ومع ذلك فلا يكون جائزا، ولا مشروعا أن أعاقب على التأليف ، أو يصادر كتابي مادام لا يحصى تحريضا مباشرا على ارتكاب تلك الجريمة بالذات ..

«ان الشر الناجم عن تفهقر الحرية الى وراء أعظم من أى شروقتى مهما يبلغ من الاستطارة

» «وان مبدأ حرية الفكر اذا تقرر يوما ما ، باعتباره أقصى مراتب التقدم الاجتماعى .. خرج من مجال الامر العساذى الى مجال الامر السامى الجليل الذى نسميه «عدلا» أو بعبارة أخرى ، يصبح حقا يستطيع كل انسان أن يستند اليه - وان قيام هذا الحق على مبدأ المنفعة لا يبرر أن تقوم حكومة فى احوال استثنائية ، فتقص من أطرافه بحجة المنفعة نفسها .»

ويعنى «بيورى» بقيام الحرية على مبدأ المنفعة، انها لكى تكون مجدية حاسمة بعيدة عن المهاترة والتعارك والخلاف ينبغى ان تناط بالمنفعة القائمة على مصالح الانسان المطردة المتطورة ..

واذا عجزت هذه الكلمات الهادية أن تهدينا، وتقف عدواننا المستمر على حرية الفكر ، فلن نعجز الواقع أبدا .. وهذا الواقع يتمثل فى أن للأفكار والآراء فى هذا العصر . من النفاذ ، والغلبة ، وسرعة الانتشار ، وقوة الاقتحام، مالا يمكن قوة على ظهر الارض من وقفها . فبدلا من أن تنفذ الى أفئدة الناس فى خلصة وظلام .. دعوها تأخذ طريقها السوى لنبصرها ونراها ، ونتفحصها فى أناة ووعى لناخذ منها الطيب ، وننفى عن مجتمعنا الخبيث . وارتباط حرية الراى بحرية الفكر خالد وثيق . ولا قيمة للثانية بدون الاولى

ونحن لا نطالب بحرية الفكر كما نطالب بحرية الراى .. فأنت تستطيع أن تفكر تفكيرا ذهنيا فى أخطر الاشياء ، وأشدّها خصومة ولددا للقانون ، دون أن يسمع أحد أو يرد ، ودون أن يقدر أحد - حتى أنت - على وقف التفكير ورجعه .

لذلك ، فان حرية الفكر تعنى فى الحقيقة حرية الراى -
حرية التعبير والقول .

وقمين بنا ان نعلم ان هناك تلازما خلقيا طبيعيا بين التفكير
والتعبير .. حتى ان بعض علماء النفس ليقولون :

« الانسان يكلم نفسه وهو يفكر .. ولو راقبنا حباله
الصوتية ، ونظرنا الى حنجرتة أثناء التفكير ، لرايناها تتحرك -
وهو دليل على أنه يتكلم ولو لم يشعر بذلك .. »

أرأيتم الآن ما بين الحريتين من تلازم وارتباط ... ؟
ثم أرأيتم ان مكافحة الحرية مكافحة للطبيعة الغالبة ، وتحد
لارادة الله .. ؟!

ولا يتمثل الراى فى شىء كما يتمثل فى الصحافة ، فهى التى
يتشكل فيها الى حد كبير أسلوب الامة فى التفكير وفى الحياة ...
وهى التى تستطيع ان تبصر فى افاضة ، واحاطة ، وقوة عن
آلام الشعب وآماله ..

ولما كنا سنتحدث عنها فى الفصل القادم باعتبارها أهم
العناصر التى تتألف منها شخصية الامة فسنرجى
الحديث عن حريتها ليأتى هناك مع الحديث عن تبعاتها وقيمتها

أطلقوا سراح العقل ..

والحديث عن حرية الفكر والراى لا يبلغ مداه حتى يحمل
نصيبه من الدفاع عن العقل ذاته

ان العقل فى بلادنا ، وهو مناط التفكير والفهم ، مشرد
محروم .. تطارده الحكومات ، وتطارده أيضا الجماعات .. !

فهو مشبوه سياسى تارة ، ومشبوه دينى تارة أخرى ..
ولا يكاد يبرز من كوى سجنه بزغة خاطفة ، أو يومض ومضة
بارقة حتى يفزع منه « المحافظون » .. !

وماذا ، بعد أن تظل عقولنا مسامة لهذا الاضطهاد . . ؟

ماذا ، بعد أن نضل أمة بلا عقل . . . ؟

ان المستعمر الذي يستعمرنا ، والمستبد الذي يحكمنا ،
والمستغل الذي يستغلنا - كل هؤلاء انما يستعينون علينا
بعقولهم .

فاذا شئنا أن نزلزل الارض تحت اقدام المستعمرين ، ونرد
الرجعية الاقتصادية على أعقابها لتلتزم مكانها الذي أراده لها
التطور والتاريخ . . .

واذا قررنا الانطلاق مع الموكب الحى ، أحرارا كما ولدتنا أمهاتنا
- عاملين ، تتفجر بالادب والفن والانتاج مواهبنا . .
إذا كنا نريد ، فلا سبيل لشيء حتى يعود الغائب ، ويطلق
سراح السجين . . العقل !

ان الخوف والتقليد هما اللذان يلفان عقولنا فى الظلمات .
والعجيب انها تخوف بالله . . ترى أين يلتمس العقل سكينته
وأمنه اذا افتقدهما لدى الله ؟

ان الشعوب التى لا تحترم العقل لن يحترمها أحد وستظل
أبدا مباءة تعج بالسهف والحماقات ونها يتربص بها كل مستعمر
وناهب . . !

ويجب أن نعلم ان العقل سيد نفسه ، واذا كان لله خلفاء فى
الارض ، فخلفاؤه العقل . .

والانسان الذى يبخل بعقله ، وينتزع منه اختصاصه ، لا يظل
إنسانا . . انه كومة هزيلة من اللحم والعظم والاعضاء والامعاء
يطلق عليها تجوزا لقب « آدمى » !

وهؤلاء الذين يشيرون العواصف امام العقل باسم الله جدمفترين !

لقد اختلف الانبياء والمرسلون ، فكان لكل واحد منهم طريقته
ومنهاج ...

واختلف أصحاب محمد عليه السلام وهو ثاو بينهم ومقيم ،
واختلف أئمة الفقه في أخص خصائص الدين ... واحترم
بعضهم لبعض هذا الخلاف ..

وما ذلك كله الا احترام للعقل ، وتحريض له على المفامرة
والتحقيق ..

انظروا - ثروا عمر بن الخطاب لا يخاف من الغاء نصيب المؤلفه
قلوبهم ، مع أنه مضمون بأية صريحة في القرآن .. !

لماذا .. ؟ لان عمر استعمل عقله ، فاهتدى الى ان هؤلاء
المؤلفه قلوبهم لم يعد ثمت ما يدعو للحرص عليهم مالم يأتوا
مؤمنين راغبين .

ولو أن عمر ، رجل يعيش في عصر الانحطاط الذي نعيش فيه
اليوم ، وصنع هذا الصنيع ، لتزاحمت من حوله الفتاوى بأنه
كافر زنديق تحركه الجماعات التبشيرية ، وتموله السفارات
الاجنبية .. !

ان استعمال العقل واحترامه بداية ما نريد من بعث ونشور -
ولا بأس أن تخطيء عقولنا وتزيغ .. فسنهتدي آخر الامر
والخطأ الذي يثمره تحرير العقل من الخوف خطأ فاضل نبيل ..
وهذا هو الخطأ الذي يجعل الاسلام لصاحبه أجرا ..

ولقد كان الرسول عظيم يوم ضم الى صدره معاذ بن جبل
تقديرا لشجاعته الادبية والعقلية حين قال : أجتهد رأيي ، لا آلو
.. جوابا على سؤال النبي له :

- ماذا تصنع اذا لم تجد الحكم في كتاب الله ، ولا في
سنتي ... ؟

وكذلك كان « جون ستيوارت ميل » بليغا وهو يقول :

« ان الحق ليستفيد من خطأ الذى يعتمد على فكره مع اتخاذ
الاهبة ، وانعام النظر - أكثر مما يستفيد من صواب الذين
لا يعتقدون الصواب الا من باب التسليم دون أن يكلفوا أنفسهم
مثونة البحث ، ومشقة التروى »

دعوا عقولنا تتحرر من الخوف ، فليس شيء سواها بقادر على
تحريرنا وانقاذنا

ولنذكر أن أعداء الشعب لا يرهبون شيئاً مثلما يرهبون
العقل الطليق المستنير . لانه الرائد الباسل أمام كل حركة
شابة ، وتطور زاحف .

انه يأتى « الرعايا » النائمين ، فيصيح فيهم صيحة الايقاظ .
- هبوا ، واستقبلوا موكب الحياة والنور .

ويأتى الطفلة المتأمرين ، فيدمدم عليهم بصياحه :

- صبحكم .. ومساكم .. !

انى اذا نزلت بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين .. !
ومن أجل ذلك يبفضونه ، ويحاربونه - وعلينا أن نحرره
ليحررنا - ونخلصه ليخلصنا .

انا لنأسف ملء نفوسنا ، حين نرى بعض رجال الدين ،
أو القلم ، يسهمون مع الغاصبين فى محاربة العقل وتأليب الجماهير
عليه ، وتشكيكهم فى قيمته وفى نفعه ، وتجريئهم على بهتة
ورجمه - حين يحصبونه بالحجارة والتهم ، ممثلاً فى آراء
بريئة خالصة لأخوة لهم فى الوطن ، والالام ، والكفاح ...

ان هؤلاء ان يكونوا سوى فريقين :

أصدقاء جهلاء للشعب ..

أو أعداء خبيثاء له ..

فليختاروا لانفسهم ما يحلو .

أما نحن فنختار لهم ، أن يكونوا أصدقاء علماء ... !
ونأسف أيضا لحكوماتنا التي تجبى منا الضرائب لتسخر بها
عن طريق المصروفات السرية والعلنية ، على أولئك الذين
يحاربون العقل والوعى بما يكتبونه ويذيعونه ..

وحين تدع كتب العشاء والتضليل تنشر بلا قيد ، ثم
تصادر ، أو تهدد دائما بالمصادرة كل كتاب يبشر بالواجب ،
ويخافت بالواقع المثير ..

وإذا كان الخوف عذبوا خطرا للعقل ، فالتقليد أشد خطورة
وكيدا .. وهو ديدبان حارس لما للرجعية والتأخر من تراث .
والأمم المنحدرة النائمة لا تفيق حتى تومض في حياتها
ساعة تؤمن فيها بأن التقليد انتحار ..

ترى هل دقت هذه الساعة فينا ، وآن لها الاوان .. ؟
ان الجواب - مع الاسف - لا .

فنحن أمة تتلقط دائما من غيرها - دون أن يكون لها ابداع
وابتكار

وهذا كلام يضل فيه الفهم اذا لم يكن بصيرا ، فقد يظن
البعض أن استهجاننا للتقليد يعنى كل محاكاة نافعة ، وكل
قدوة بالذين سبقونا الى الحياة .. كلا - والفارق بعيد بين
التقليد والمسايرة ...

ونحن ندحض التقليد ، ونؤمن بالمسايرة .

ولكن ماعلاقة التقليد بحديث يساق عن الحرية .. ؟

ان العلاقة بينهما أكيدة وواضحة .

فالتقليد - عبودية ورق - واهدار لكافة مقومات الحرية ، والشخصية
والفرد حين يقلد فردا آخر يمحو ذاتيته من الوجود . .

والدولة حين تقلد دولة تقليداً أسمى توقع منشور نصيها وخبر وفاتها ..

وفي بلادنا يكمن التقليد وراء كل عمل نأثيه ، ونهج ننهجه
وفي غيرنا من بلاد اللانيسا المتحضرة عليت نزعة التقليد
وهذبت ، وصارت تطورا ومسايرة
يا للمشاهد المضحكة .. !

جماعات تقف في أقصى اليمين ، وعلى ابصارها غشاوة . وجماعات
أخرى في أقصى اليسار ، وعلى أعينها غطاء ..
ورجال دين يعلنون من فوق منبر الفاتيكان أن ملكوت الله ،
ورحموت الكنيسة حرام على من يناصر الشيوعية ، أو حتى
يتلو صحيفتها ..
فيقلدهم رجال دين عندنا كبار - مديعين نفس الفتيا معلنين
نفس الاعلان

وهنا يتبين لك الفارق الاكيد بين المسايرة والتقليد فالفاتيكان
ابتدع هذا النهج مسايرة لامريكا بعد ان اعتمد له « الكونجرس »
ملنا مئات الملايين من الدولارات جزاء وفاقا لحملته ومسايرته !
اما نحن ، فنقلد تقليد العبيد الذين لا ثمن لهم ولا جزاء ..
والحكومات عندنا - الفتى هي الاخرى عقلها - ومضت تقلد في
جنون وشفف -

فهي تارة تقلد « عنتره » ، فتخطب وتصخب ، وتبطش
بالضعفاء لتزجر بهم الاقوياء ، وتمزق الهواء بالسيف ، وتهتف
من « الشرفه » بسقوط الشيوعية ..

وتارة أخرى تقلد « جحا » يوم مضى يؤذن وهو يجرى في الطريق
فلما سئل : لماذا يصنع هكذا ؟

اجاب بانه يريد ان يعرف الى اى مدى يبلغ صوته الجهير .. !

فحكوماتنا تحمل نفسها أوزار العروبة ، وسفها وفوضاها -
لأنها تريد أن تعلم . الى أى مدى يمكن أن يصل صيتها ، وإلى أى
مدى تستطيع أن تسوس أمبراطورية مترامية عندما يمن
الله بها عليها . . !

لقد كان جحا قادرا على معرفة منتهى صوته ومداه أو أنه وقف
مكانه ونادى بالأذان . . . ولكنه أراد ذلك ليتيح للفسارغين أن
يقلدوه ، ويتفصوا بذكائه . . ! اننا في كارثة ، ونحن لاندرى . .

فالتقليد لدينا محور حياتنا

وهو يذهب صاعدا - فتقلد الجماهير روادها من كتاب
وصحفيين وبرلمانيين . .

وهؤلاء جميعا يقلدون الروح المتخلف من سكان الاضرحة
والقبور . .

ثم يأخذ التقليد ترتيبا آخر تنازليا ، فنرى الشعب مثالا
يصيح . .

هيا الى فلسطين - فيردد الكتاب والرواد صده . .

هيا الى فلسطين - واذا الحكومة تصيح هي الاخرى - هيا
الى فلسطين . . دون أن تنهيا وتستعد وتقف على صخر مكين .
والجماهير - تنفس عن غيظها العاجز المكبوت ، فتتهف . .
تسقط الرأسمالية . .

وتقلدها الحكومة ، فتصرخ - تسقط الشيوعية . . !

ان عقليتنا السياسية تقلد ، وعقليتنا العلمانية تقلد ، وعقليتنا
الاصلاحية تقلد . . لذلك نحن أمة تافهة - فقدت نفسها لأنها
فقدت عقلاها - فاذا أردنا أن نجد أنفسنا ونفرض على الآخرين
وجودنا واحترامنا ، فلنقدر العقل قدره . . ولنمكنه من أن يفكر في
حرية وانطلاق - لا يخاف وهما ، ولا قانونا - ويساير النابهين
مسايرة مبصرة . ولا يقلدهم تقليد المكفوفين .

غريزة « أنا » - الحرية السياسية . . .

عندما نتحدث عن الحرية هذا الحديث المتنوع ، فنقول حرية الفكر ، وحرية الرأي ، وحرية النقد - الى آخر هذه التقسيمات ، فليس معنى هذا أن الحرية تتجزأ . .

ان الحرية وحدها متضامة متداخلة لا تقبل التجزئة ، ولا التفيت - ولكننا نكسوها هذه الازياء المتنوعة - تبعا لتنوع الظروف والمقتضيات . . والحرية هي الحياة . . والحياة لا تتجزأ - فأما حياة كاملة - وأما موت كامل -

من أجل ذلك صاح محرر قديم - اعطنى الحرية - أو الموت ! ونريد الآن ان نتحدث عن الحرية السياسية للشعب - وهى الانفعال السامى لاعرق غرائزه ، وأنفعها ، وأغناها .

غريزة « أنا » حب الذات ، وإثباتها ، وتوكيدها - ان الشعوب المستعبدة تعجز دائما عن أن تقول : أنا . . اسمعوا هذه الحقيقة جيدا .

ان الشعب المسترق لا يستطيع أن يقول : أنا . . مشيرا الى نفسه . .

ولكنه يقول : هو . . مشيرا الى سيده !

وعلاج شعبنا اليوم فى لسانه . . أن يقول دائما :

أنا . . أنا . . أنا

أن توكيد الشخصية يتطلب مددا زائدا من قوى الفرد ، وقوى الجماعة . . واذا كانت التعاليم المملوطة ، والاهانات المتكررة ، والاستعمار المتفطرس . . اذا كانت هذه جميعا قد نزعت عنا كبرياءنا ، فلنحاول من جديد أن نكون أهل ثقة واعتداد وكبرياء . لقد قرأ نابليون فى صغره - ان من أراد ان يكون شيئا ما ، فليهتف

كل يوم ثلاث مسرات عن وعى وانتباهه - يجب أن أكون ذلك
الشيء ..

وذهب ، فكتب « لافتة » واضحة الكلمات - وناطها بجدار
غرفته - وفي كل صباح يرتدى ثيابه - ثم يستقبلها في وقفة
مسكينة - ويقرا كلماتها المكتوبة في قوة :

- يجب أن أكون جنرالاً .. !

وانكم لتعلمون أى شيء قد صار - نابليون ..

نريد أن نكون مجانين مثل الطفل نابليون ..

فيهتف كل مصرى صباح كل يوم - أنا مصر ..

نريد أن تصف كل سيدة صغارها وأشباهها قبل منصرفهم
من المنزل في الصباح - وتطلب اليهم أن يصيحوا جميعاً - نحن
مصر ..

نريد أن تقف « طوابير » التلاميذ والطلاب في ابهاء معاهدهم
ومدارسهم لتهتف صباح كل يوم - نحن مصر ..

نريد أن يفتح النواب والشيوخ جلسات البرلمان بهذه الصيحة
الواثقة - نحن مصر ..

ولكن بعد أن تمثل مصر في برلمانها تمثيلاً صحيحاً .. ينتظم
فقراءها قبل أغنيائها .

لن نعرف حقناً - حتى نعرف أولاً - أنفسنا ..

ولن يعترف أحد بوجودنا .. حتى نثبت أولاً هذا الوجود ..
والسبيل لهذا :

أن تقف - لنرى .

وان نتحدث - لنسمع

وأن نقتحم - لنخشى

وقبل أن نقول : نريد - يجب أن نقول : نحن !

وإذا ما سئلت : أتدعو الناس إلى الانانية ، وحب الذات ، وحب الظهور . . ؟ !

أجيب : نعم . . يجب أن نتحلى بفضيلة الانانية . . الانانيسية المستنيرة الفاضلة ، التي تحفزنا إلى ادراك قيمتنا ، والعكوف على مطالبنا ، والنهوض بواجباتنا ، والتشبث بحقوقنا . . لقد قتلنا التواضع ، وبددنا طول الانطواء والانزواء . . فلنبرق إلى الأفق ، ولنبصر أنفسنا من جديد . .

ان الانانية البغيضة هي تلك الفردية التي تطويك على نفسك ، وتلفك في اطماعك وشهواتك . . أما الأخرى التي نريدها - فهي تعرفك بنفسك - لا تطويك عليها - وتشرك ضخما ضخما عظيما ، لتملاً أفقك وفراغك . .

ولكى يبلغ الشعب هذه المكانة ، ويحقق في مجموعته هذه الفضيلة - يجب أن يبدأ أفرادها بذلك . .

غادر نفسك - إذا كانت نفسك قبوا مشحونا بالاطماع . .

وأنشئ لك نفساً جديدة لهامثل ، ونهج ، وكفاح بحيث تتلاقى مثلك ونهجك وكفاحك مع حاجات وطنك ، ومصلحة مواطنيك . . واعكف على نفسك هذه . . فلن تكون أنانياً بغيضاً . . بل أنانياً مستنيراً .

وإذا كان هناك ما يعين على هذه الطريق بعد أنفسنا ، فهو إتاحة الحرية السياسية لنا إتاحة كاملة لا تكتنفها عوائق ولا قيود . . فعن طريقها تتحقق كرامتنا السياسية ، ووجودنا القومي والانساني .

ان الحياة السياسية للامة تنتظم كثيراً من العناصر والادوات - ولكنها تتركز أخيراً في الحكومة ، والبرلمان .

فالبرلمان يشرع للأمة سياستها والحكومة تقوم بتنفيذ هذه السياسة - وبين الاثنين تفاعل يذهب طردا وعكسا ، فالحكومة تؤثر في البرلمان وتخضع له . . وهو يؤثر فيها ويخضع لها . . والطريق المفضى لتحقيق حريتنا السياسية هو : ديموقراطية الحكم والديموقراطية النيابية - فلنتحدث عنهما -

ديموقراطية الحكم

لكى يكون الشعب حرا - يجب ان يسود . .

ولكى يسود - يجب ان يحكم

وهذه هي الديموقراطية . . حكم الشعب

وما دامت الحكومة ثمرة انتخابات يختار الشعب عن طريقها ممثلين ، ليعينوا بدورهم نوع الحكومة التى ستحكم . . فان الشعب اذن هو المسئول وحده عن نوع حكومته ، وسنوضح هذه المسألة عند الحديث عن الاصلاح البرلمانى . . بيد اننا نريد ان نقرر هنا أن الحكم الديموقراطى اذا غربت شمسُه عن أمة ، فقد غرب معه استقلالها ، ومال مستقبلها للمفيع . . وبعبارة أخرى . .

ان الحكم الاستبدادى يقوض سيادة الدولة ، ويهيبُ الأمة للعبودية والاستسلام . لذلك يجب أن يسلك كل حاكم طاغية فى عداد « الخائنين العظام » - لانه باستبداده ينزل الشعب منزلة رديئة من الاستياء والقنوط يفقد فيها زمام التصبر والاحتمال . . فيرحب بكل طارق يقرع أبواب بلاده ، ويرى المقاومة ضربا من العبث والجنون . .

ماذا وراءه حتى يحرص عليه ، ويدود عنه . . ؟

لقد قال الشاعر العربى :

وحبب أوطان الرجال اليهمو مأرب قضاها الشباب هنالكا

فاذا تلقت الشعب وراءه، فلم يجد له ذكريات سديدة تستجيئمه
وتناديه - ففى سبيل ماذا يقاتل؟

وقال شاعر آخر:

لا أذود الطير عن شجره قد بلوت المر من ثمره

فاذا ابصرت الجماهير بالاشجار التى أبت أن تظللها من الهجير ،
وتطعمها من الجوع .. تجتاحها الاعاصير ، أو تعدو على ثمارها
الذئاب .. فلماذا تدافع عنها ؟ !

لذلك لا نجد غازيا سار عبر التاريخ الى مدائن ففتحها ، أو
عروش فدكها ، أو امبراطوريات فأذاقها لباس الخوف والذل -
الا كان استبداد الحكم فى هذه البلاد المفتوحة الصريعة ، الطريق
المهد الذى دخل منه موكب الغازين ..

انصتوا لغوستاف لوبون -

« استقبل كثير من البلاد المحتلة غزاة فرنسا كمحروين لها
- فقد هرع سكان سافوا الى رؤية الجنود الفرنسيين ، واستقبل
الناس فى ميانس هؤلاء الجنود بحماس .. وغرسوا أشجار
الحرية ، وأسسوا مجلس عهد شبيه بمجلس باريس ..

« .. وكلما كانت جيوش الثورة الفرنسية تصطدم بأمم
أذلها الملوك المستبدون ، ولم يكن لها خيال تذب عنه - كان النصر
يحالفها .. ولكنه كان يتعذر عليها عند اصطدامها بأناس أولى خيال
وثيق كخيالها .. »

اذن فالحكام المستبدون فى أمة هم طابورها الخامس الذى يعمل
بشعور أو لا شعور ، لحساب الغزاة والمستعمرين ... وهم
الذين يحيلون الشعب الصلب المتماسك الى زبد طرى تجرى
فيه السكين ..

(١) كتاب روح الثورات - تعريب الاستاذ محمد عادل زعيتر

واذن فالامة يتقرر مصيرها ، يوم ينهض فيها حكم استبدادى
واو ترفع بأردية زائفة من الديموقراطية ، وما أروع اذن
- محمدا رسول الله حين يقول :

إذا وسد الامر لغير أهله فانتظر الساعة . .

أى اذا صارت أمور الامة بيد من ليس للحكم أهلا ، فانتظر
الساعة . . الساعة التى تدق معلنة وفاة هذه الامة . . ناعية
سيادتها واستقلالها . . ! وهل يكون المستبد أهلا للحكم أبدا . ؟
انه لا يكفى شكل الديموقراطية بل لابد من حقيقتها .

وليس يكفى أن يكتب فى الدستور : الامة مصدر السلطات
ثم يكون الواقع - ان الامة ضحية السلطات . . !
وليس يكفى أن يحمل حكامنا « جنسية مصرية » بل لابد أن
يجرى فيهم دم مصر ، وآلام مصر وآمالها . .

ان الحسناك الديموقراطى يحترم الشعب ، ويجعله فى عينه
أجل من أن يخدعه ، وأعظم من أن يضلله ويحترم حقوقه جميعا
أدناها ، كأخطارها . . ولطالما استبد بنا الدهشة والعجب حين
تضطرب أمورنا ، فنفقد توازن الحكم وديموقراطيته ، ونسأل
مانحن . . ؟

عرب - أم فراعنة . . ؟

ثم تتكاثف الدهشة حين نجد أنه لادين العرب الذين هم آباؤنا
ولا دين الفراعنة الذين هم جدودنا - يبيع الاستبداد ،
ويمنح الحاكم المستبد حق الطاعة والاحترام . . !

فهذا هو الرسول يقول :

« مامن أمام يفلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة الا
أن تلقى الله أبواب السماء دون خلته ، وحاجته . .

ويقول : « اذا رأيتم الظالم ، ولم تأخذوا على يديه يوشك ان يعمكم الله بعذاب من عنده .. »

ويقول : « اللهم من ولي من امر أمتي شيئا ، فشق عليهم ، فاشقق عليه .. »

ويقول : « ان شر الرعاء الحطمة . »

ويقول : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، ويصلون عليكم ، وتصلون عليهم .. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ، ويلعنونكم . »

ويقول : « اذا اراد الله بالامير خيرا - جعل له وزير صدق ، ان نسي ذكره ، وان ذكر اعانه .. واذا اراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء - ان نسي لم يذكره وان ذكر لم يعبه . »

وهذا عمر يعدو وراء بعير شارذ من ابل بيت المال .. حتى اذا سئل :

الا نتعقبه نحن ، وتستريح أنت يا أمير المؤمنين ؟

اجاب وهو يهدر :

ولماذا اذن اكون للناس واليا واميرا .. والله لو ضاع عقل بعير بالعراق لخشيت ان يسألني الله عنه ، ويقول لى :

انستودعك حقوق الناس ، وتنام عنها يا عمر .. ؟!

أى أن عمر رضى الله عنه يقدر مسئوليته ازاء حق الشعب فى عقل بعير - فى جبل من مسدلايساوى شيئا - فكيف كان تقديره اذن لحق الشعب فى الحرية .. ؟

هذا هو الاسلام .. اذا كنا مسلمين ..

وماذا فى دين المصريين الاقدمين ؟

انها نفس التعاليم التى تلزم الحاكم باحترام الشعب ، ونشر الحرية والعدل والمساواة بين ابنائه جميعا

لنضع أبصارنا الآن على الصفحة الثالثة والتسعين من الجزء الثانى لكتاب « قصة الحضارة » .. حيث نطالع الخطاب التقليدى الذى كان يلقيه الملك على الوزير حين يتقلد منصبه ! ..

« اجعل عينيك على مكتب الوزير ، وراقب كل ما يحدث فيه ، واعلم انه الدعامة التى تستند اليها جميع البلاد .. ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرة .. واعلم انها ليست اظهار الاحترام الشخصى للامراء والمستشارين وليست وسيلة لاتخاذ الناس أيا كانوا عبيدا ..

« انظر . اذا جاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شئ ، وان يعطى كل انسان حقه .. واعلم أن المحاباة بفيضة الى الاله ، فانظر الى من تعرفه نظرتك الى من لاتعرفه .. والى المقربين الى الملك - نظرتك الى البعيدين عن بيته ..

« انظر . ان الامير الذى يفعل هذا - سيبقى هنا فى هذا المكان .. وليكن ما يخافه الناس منك انك تعدل فى حكمك .. «
« ارفع القواعد المفروضة عليك . »

هذه آيات يفسدها التعليق ، فلندعها هكذا متأنقة متألقة - ولنتساءل مرة أخرى .

من أين لنا اذن ما يصبغ حكوماتنا جميعها بصبغة العتو والاستبداد ؟ ..

من الاسلام . . ؟ لا ..

من المصرية القديمة .. ؟ لا ..

اذن . فمن أين . . ؟ من أين تهب هذه الريح السموم ؟ ..

لابد أنها من الماضى .. حيث الاستعمار التركى المتوحش .

ومن الحاضر . . حيث الاستعمار الانجليزى الخبيث .!

لقد أتى على جماهيرنا المستعبدة حين طویل من الدهر زيف فيه دينها تزيفاً هادفاً ليسلس قيادها ، وتتلاشى أمام الطفلة ارادتها . فقل للمسلمين منا : ان نبيكم يقول :

« اسمع لاميرك واطعه ، وان جلد ظهرک واخذ مالك »

« كن عبد الله المغلوب ، ولا تكن عبد الله الغالب »

« الزموا طاعة امرائکم ، وان ظلموا . . ، فان الله مبتليکم بهم »

وحاشا محمدا . . ثم حاشاه أن يقسول من هذا شيئاً . .

وقيل للمسيحيين منا ان دينکم يقول :

« أيها العبيد - فلتخضعوا لآسيادکم ، والخسوف يماذ

نفوسکم . ولا يكونن هذا ضوع للخيرين منهم ، ولا للرفيقيين فحسب - بل وللشريرين أيضاً - رسائل بطرس .

« أيها العبيد - اطيعوا ساداتکم في خوف ، ورعدة . .

- الرسالة الموجهة الى الفيزيين

« على جميع من يخضعون لئير الرق أن يعتبروا آسيادهم

جديرين بكل تبجيل - الرسالة الموجهة الى تيموتيوس . .!

وحاشا روح الله - وحاشا حواريه الصادقين أن يقولوا من

ذلك شيئاً . .!

انها اذن مؤامرة قتل الاستبداد حبالها من زمن وسلك

فيها ضحاياہ من الشعوب .

فلنحذر . . ولنعش أحراراکما ولدتنا الامهات ، وتشققت

منا الارحام . .

الديموقراطية النيابية :

وإذا كانت ديموقراطية الحكم لازمة لتحقيق الحرية السياسية في الأمة ، فالزم منها وأخطر الديموقراطية النيابية . . . فالبرلمان هو الذى يثمر الحكومة ، ويعين أونها . . . وعملية الانتخاب هى التعبير الصحيح عن إرادة الشعب وحرية السياسية إذا لم تخالفها رغبة ولا رهبة . .

والديموقراطية النيابية تتحقق بعناصر أهمها : -

- أ - حرية الترشيح . .
- ب - حرية الاقتراع . .
- ولنبدا الحديث عن أولها . .

حرية الترشيح

ان المواطن الذى يتقدم الى الناخبين طالبا ثقتهم ، يجب ان يكون حرا . . ويجب ان يشعر بالحرية المطلقة شعورا غامرا حتى يواتيه الاحساس الصادق بكرامة مهمته وقدسيتها .

ولكن الترشيح في بلادنا مصفد بهذه القيود .

- ١ - الدوائر المغلقة . .
- ٢ - العصبية والحزبية
- ٣ - القيود البرجوازية . .

أما الدوائر المغلقة فبدعة في حياتنا السياسية . . وهى نوع مهذب لاسواق الرقيق . . لان فحوى هذا النظام ان تتفق الاحزاب على توزيع مناطق النفوذ . . فيأخذ كل حزب نصيبه من الدوائر ، ثم يفرض عليها من مرشحيه من لا تكون لهم موهبة سوى موهبة التبطل والفراغ . . ! ويحرم على

ذئاب الحزب حرف (ا) أن تعتدى على ذئاب الحزب حرف (ج) بل لماذا نظم الذئاب . . ؟

ان نظام الدوائر المغلقة يقضى على المنافسة الحرة فى الترشيح ويجعل أحزابنا قريبة الشبه (بالفتوات) الذين يتقاسمون الشوارع والأحياء . . ! ولا بد لكى تنال حريتنا النيابية من إلغاء هذه البدعة وتحريمها .

وليس بخفاف عنا ، أثر العصبية ، وقوائم الترشيح التى تصدر عن الأحزاب ، فى تسيير المعركة الانتخابية فى طريق بعيدة جدا عن الحرية والديموقراطية .

واقعد أهدرت من وقتى كثير الكى أتمكن من مراجعة بعض قوائم الترشيح الحزبى التى صدرت فى بلادنا . . وامامى الآن منها خليط متنافر ، لأحزاب عدة ان أذكر لك أسماء . . وحسبك أن تعلم أن تسعين فى المائة من الذين تحمل القوائم أسماءهم ليسوا أكثر من حزم كبيرة من البنكنوت والجهل والنفاق . . ! لقد آمنت بأن الأحزاب لا تحترم الشعب أبدا مادامت تختار له هذا الاختيار . . !

ان الحزب - فيما يبدو - لا يريد نائبا يشرفه بعقله ومواهبه ولكنه يريد - بوليصة تأمين - تؤمن خزينته من الأعواز ونفوذه من الخذلان .

وهكذا تباع الأحزاب - الناخبين الى مرشحيها . . ثم يعود المرشحون . . لبيعوا الناخبين ومصالحهم الى الأحزاب ولسنا ننظر الى خطر قوائم الأحزاب من هذه الزاوية وحدها - بل ومن الزاوية الأخرى حيث تستعمل الأحزاب نفوذها - غالبا - فتعمل على انجاح عملائها الذين فرضتهم على الشعب . . ومن زاوية ثالثة - حيث يتسم النظام النيابى بما قد يسلح وصفه بالخسة والدناءة . . اذ لا يسجل اسم مرشح فى

قائمة الحزب الا اذا نقد الحزب ثمن هذا الترشيح - هذه جريمة
بشعة ..

فنحن نعلم ان المرشح لا يدفع ألفاً من الجنيهات مثلاً الا ليضمن
بها الفوز والانتصار .. والحزب يعده ذلك ويمنيه ويعمل جاهداً
لأجله . ويقبض منه الثمن على هذا الاعتبار ..

بماذا تسمى هذه العملية المتبجحة الرخيصة ؟

أهى سمسرة ؟ أهى غش وتدليس .. أهى تجارة رقيق ،
يباع فيها الناخبون للمرشحين ؟

نعم - هى كل ذلك .. والغرم دائماً على الشعب الاسيف
فالمرشح الذى يرشو حزبه بألف جنيه ، وينفق فى المعركة مثلها .
يعود فيتقاضى مادفعه أضعافاً مضاعفة .. ومن أين .. ؟ من
الشعب وعلى حساب مصالحه . فهو اذا نجح فى الانتخاب يصير
رجلاً ذا نفوذ .. وهذا النفوذ لا يتحرك لقضاء حاجة الا بـ ثمن
.. لا يسمونه طبعاً رشوة ، ولا سمسرة . انه فقط (مصاريف)
الانتقال . و ثمن القهوة ، أو ثمن البنزين .. !

والذين يوضعون فى قوائم الترشيح أثمان متفاوتة ،
تختلف باختلاف الدائرة ، والحزب هل الدائرة مقفلة أم
مفتوحة ؟ لكل من الاثنتين ثمن ! وهل الحزب ضالع مع الحكومة
التى ستجرى الانتخابات أم غير ضالع ؟ لكل من التقديرين ثمن
وفى أحزابنا تقرر أجراس المزايدة .. والاوكازيون .. ففى
هذا الحزب تساوى الرأس .. خمسمائة ..

واذا كنت رجلاً رقيق الحال فلا تحزن .. ستجد أحزاباً
أخرى رقيقة الحال مثلك ثمن رأسك بـ ثمن بخس - مائة جنيه
مثلاً .. وخمسين أيضاً اذا هانت عليك رأسك كل هذا
الهوان ! .. !

فاذا غادرنا القوائم الى العصبيات ، ألقينا فسادا كبيرا
فهناك ترى مثلا - رجلا مفرط الجسامة ، منتفخ الاوداج ..
حذار أن تطيل اليه النظر ، وتحملق بعينيك الفضوليتين في
وجهه الكريم .. انه السيد المالك .. الذي يملك القرية
كلها .. وربما يملك معها القرى التي حولها .

حسب هذا السيد حين تخلو الدائرة - أن يعلن في كلمات
متأففة متكلفة .. أنه سيدخل المعركة ، فلا تكون قط معركة
.. لن يجرؤ أحدهما تكن ثقافته على مواجهته فضلا عن مزاحمته

ولقد حدث مرة أن اجترأ رجل فاضل جدا ، ومثقف جدا
- على ترشيح نفسه في إحدى دوائر الصعيد أمام سيد كبير ..
فضرب السيد الأرض بقدمه فانشقت - وخرج منها أحد
خدمه وعبدانه .. فانسحب السيد من الترشيح ، واقسم
بهزة آبائه أنه لن يرشح سوى هذا ، ولن ينجح سواه .. هذا
الخادم الاقرع الاعرج الذي يتبول على نفسه ، ويظن أن
السماء تمطر رذاذا ..!!

وقد كان .. واحرج الرجل المثقف الفاضل - كان يمر
بالدائرة في بضعة أنفاس من عصبية المتواضعة ..

وكان خادم السيد يسير في موكب يزرى بالموكب ، وكرنفال
تهتف الدنيا له ..!!

لابأس ان يرشح الخدم وينتخبوا - فهذه دعوتنا
ورسالتنا - أن يحرر العبيد ، وترتفع قيمة الانسان ..! ولكن
الموقف هنا مختلف اختلافا بعيدا وهو من
الوضوح بحيث يعتبر تفسيره اتهاما لفطنة القارئ وذكائه ..

ان العصبيات وقوائم الترشيح تطأ حرية الاقتراع
بأظلافها وتبديدها تبديدا ... والدوائر المغلقة كذلك - ورابعة
الاثافي ، ان كان للاثافي رابعة .. هي :

القيود البرجوازية

انها تسجن امكانيات الشعب في قانون . . .

قانون لايسمح لك بالترشيح الا اذا دفعت مائة وخمسين جنيها
. . . والا اذا كانت ضريبة الدخل التي تدفعها عن املاكك وأطيانك
مائة وخمسين جنيها كذلك اذا كنت ستدخل مجلس الشيوخ !
ان مقاييس الجدارة في بلادنا تزال أبعد ما تكون عن المواهب
الجديرة بالاحترام . .

انها تناط بمالك . . ووسامتك . . ونوع الدوحة الكريمة التي
تنسب اليها . . !

وقد يحسب المشرون أن مائة وخمسين جنيها للتأمين شيء غير
معجز . . وهم معذورون لان أكوام الذهب والورق التي أمامهم
تخفي عنهم ملايين المواطنين الشرفاء . . الذين يعيشون من
اليد للقم ، والذين قد يتقاضى أحدهم ثلاثين ، أو أربعين جنيها
ولكنه يوم يموت لا يجد أهله ثمن الكفن الذي يلف حطامه ،
وعظامه ! . .

ثم ان هذه القيود ، حتى مع القدرة قبيحة ، برجوازية ، مثبطة
قد يقال : ان هذا التأمين الذي يؤهلك للترشيح . . أو
ذلك الشرط المادي الذي يشترط ملكية خاصة تؤهلك للشيوخ . .
انما توخى بها القانون تنظيم الترشيح ، وحصره في نطاق
معتدل معقول . . حتى لا يتقدم كل من هب ودب . .

وسنفترض ان هذا هو الباعث ؛ وانه باعث سليم .
وعندئذ نسأل :

لماذا تناط المسألة اذن بالمال . . ؟

هنا تبرز الاغراض الرأسمالية الواقفة وراء كل تشريع ؛ والتفكير
الاقطاعي الذي يمسك زمام المجتمع وزمام الحياة . .

فليكن المناط في هذا المجال - العلم . . . المؤهل العلمى . . .
وحتى هذا نحن لانرضاه . . . ونرفض أن تقيده ارادة الترشيح
بأى قيد سوى قيد المواطنة . . . والصلاحيه . . .

ومن القيود البرجوازية أيضا السن . . .

فأنت ؛ مهما تكن مواهبك ونضجك ، لا تكون نائبا حتى
تبلغ الثلاثين . . . وقد تسقط فى أول محاولة لك ؛

وفى الثانية أيضا . . . فلا تتمكن أن تخدم بلادك داخل
البرلمان الا ابتداء من الاربعين مثلا . !

ألسنا نمنح الشاب ابن العشرين ، أو ابن الثالثة ،
أو الخامسة والعشرين شهادات عليا ، تتيح له أن يكون محاميا ،
أو طبيبا ، أو أستاذا ، أو قاضيا . . . ؟ !

فهل هذه الوظائف فى قيمتها والتزاماتها لاتهم الدولة ، فتعهد
بها الى الصبيان . . . ؟ !

أى فارق بين وكيل للنياابة فى سن الخامسة والعشرين
يجلس الى يمين القضاة .

وبين وكيل الامة ، فى مثل هذه السن ، يجلس تحت قبة
البرلمان ؟ . . .

فلتفض هذه القيود . . .

فلا يشترط التأمين - ولا دفع قدر من الضرائب محدود . ولا
سن الثلاثين - ولا الاربعين .

ان سن الرشد الذى اعتبرته الدولة ؛ وحددته باحدى وعشرين
هى السن اللائقة للبرلمان بمجلسيه - النواب والشيوخ .
نبدا منها ، ونظل مادام فينا جلد وقدره وحياة . . .

وبعد ؛ فان مجالسنا النيابية حتى اليوم لم تمثل الامة ، بقدر

مماثلت الحزب . . وكان هذا سببا مباشرا لكل ما تعانيه من
ويلات

والبرلمان الذي يأتي ثمرة هذه الاوضاع الفاسدة - لا يحكم
الحكومة بل تحكمه . .

ولا يعرف عن تأييدها ابدا - عدا محاولات ناشئة بدأنا نحسها
في البرلمان القائم . . قد تتضاعف وتنمو - وقد توجه اليها صيحة
زاجرة ، فترتد على أدبارها ، وتنكص على أعقابها . .

في شهر نوفمبر عام ١٩٥٠ - وافق مجلس العموم البريطاني
بأكثرية (٢٣٥) صوتا - ضد (٢٢٩) صوتا . . على تعديل
تقدم به حزب المحافظين بشأن بعض المسائل البرلمانية . . أي
ان حزب المعارضة انتصر على الحكومة في برلمان لها فيه أغلبية
الاعضاء والآراء . .

فما دلالة هذه الظاهرة التي تتكرر كلما تكررت مقتضياتها ؟
انها تدل على ان النائب هناك ، يعرف نفسه جيدا .
ويدرك انه يمثل الامة في البرلمان ويمثل الحزب في الامة .
أما عندنا ، فالنائب يمثل الامة في الحزب ، ويمثل الحزب
في البرلمان !

فارق كبير جدا - فمتى نبلغ مبلغ الرجال . ؟

ب - حرية الاقتراع

الاقتراع - هو الادلاء برأى حر في اختيار ممثل لمجموعة من
الناس - يثمر تلك المنظمة النيابية التي نسميها « البرلمان »

والبرلمان - هو الهيئة المختارة الممثلة للامة ، والتي تثمر الحكومة
الديموقراطية ، وتراقب سلوكها

والحكومة - هي الهيئة التي تقوم بحماية الدولة ، وتنفيذ
قوانينها ، ورعاية مواطنيها . .

واذن ، فنحن حين نختار نوابنا ، أو شيوخنا - نختار في

نفس اللحظة الحكومة التي ستحكمنا ، بل والقوانين التي
ستسيطر على مجتمعنا . والسياسة الداخلية والخارجية
لبلادنا ...

فاذا كان الشعب اليوم بمعزل عن المؤثرات الحقيقية في سياسة
وطنه - لايسهم في تقرير مصيره . .

واذا تكون كريمة يدعى لها- واذا يحاس الحيس يدعى جندب
فمغنى هذا انه - كان الله معه- لاينتخب ، ولايختار . . وانما
يساق سوقا عنيفا ، أحيانا - ورفيقا، أحيانا أخرى الى التصديق
على الذين تضعهم الظروف السعيدة أمامه من مرشحي
الاحزاب ، ومرشحي السلطات، ومرشحي العصبيات !
هذه هي الحقيقة . .

ان الحرية السياسية في بلادنا كالاشرافية تماما . . . كلتاها
اكذوبة على شفاه الكبار . . وهم في أحلام الصفار ! . .

أصحيح أن الناخبين حين يساقون الى الصناديق
بالوسائل المعروفة يتمكنون من صوغ رأيهم واملاء ارادتهم . . ؟
أصحيح ان هذا المواطن المحطم المتهالك الذي يحمل
هموم الثقلين . . ويزلزل سكينته صراخ عشرة بطون
جائعة هي بطون زوجه وأولاده .

هذا المسكين الذي برقت أمام حاجته وحرمانه ورقة
بنكنوت ، تتيح له امتلاك خمسين قرشا تجعل جحيمه
فردوسا أعلى . . وتجعله في ملح البصر من الاغنياء والموسرين
. . ! على أن يعطى صوته لرجل لايعرف عنه شيئا ؛ الا انه
أحياء . . يوم كانت حياته منوطة بهذه الخمسين . .

أتظنونه سيأبى . . ويذهب ليختار مرشحا آخر لايرشو
ولا يعطى ؟ . .

كلا - ولو كان مرشح السماء . . . !

ومواطن آخر . . ذلك الذى يقع فى منطقة نفوذ مالك كبير ، فيؤمر أمرا باختيار مالكة . أو من يهبه المالك رضاه ، فيمضى صبيحة الانتخاب أسيفا مكتئبا يحسد الآخرين الذين هم فى منح أصواتهم أحرار . . يبيعونها بالثمن الذى يشاءون . . .
أتسمون هذا انتخابا ؟

أعرف فى مصر « تفتيشا » غليظا أنا أحد رعاياه . . وقريتى كلها تقع بين فكيه ، وفى دائرة نفوذه - ومعها بلاد وبلاد . .
فاذا جاءت انتخابات ؛ لم تجد المرشحين هناك يتزاحمون على أبواب الناخبين ، ولا يسعون اليهم . . بل يتسابقون الى سراى التفتيش . .

وهناك يجلس « البك » « المفتش » ينقر مكتبه الانيق بأنملة سبافته ، فيهب سكان أربعة بلاد وقوفا ، وصفوفا . .
ثم يومئ اليهم بطرفه ، فيخروا ساجدين . . !

فعندما تزور « البك » المفتش وتصلان معا الى اتفاق معلوم .
ويعدك بأن الصفقة لك ، فقد ضمنت قطعاً أصوات هذه البلاد جميعا . . وفى يوم الانتخاب « المشؤم » يساق القطيع المسام يشغو ثغاء هزيلا . .

من تنتخبوا . . ! التفتيش . . !

من نائبيكم ؟ التفتيش . . !

انظر . . انهم لن يختاروك فحسب ، بل وسيجعلونك تفتيشا . . !

حدث هذا ، ولا يزال يحدث . وفى يوم من تلك الايام التقى أستاذ فاضل باحدى المدارس الثانوية بمعاون التفتيش ، وهو واقف بين الناخبين ، يذكرهم ويحذرهم فأخذته عزة العلم ، وكرامة الانسان ، وثار فى عنف . . .

وثار معاون التفتيش في عنف أكثر . . .
 كان المدرس الفاضل يتحدث بقوة كرامته وحدها . .
 وكان الثاني يتحدث بقوة تفتيش باذخ عظيم . .
 كان الاول يترافع عن حقوق الانسان . .
 وكان الثاني يترافع عن حقوق الاطيان ! . .
 ما الكرامة . . أمام تفتيش، في بلد كمصر . . !
 وما حقوق الانسان ، أمام الاطيان ، وآلهة الاطيان ، في
 بلد كمصر ١٩٠٠
 انتخاب هذا . . أم انتهاب ؟
 اختيار هذا . . أم اقهار ؟
 كل شيء في بلادنا مظلوم . حتى اللغة - حتى الكلمات ١٠٠
 ان الانتخابات - هنا - ملحمة عظمى ، تصرع فيها ارادة
 الشعب وحرية . .
 وهذه الجماهير المتراكضة تسخر فقط لحمل الاعضاء
 على الاكتاف حتى تبلغ بهم باب البرلمان . . وهناك يسمح لها
 بالعودة . . فتعود الى نجوعها، وجوعها تفرع سن الخيبة ،
 وتزدرد آمالها اللاعبة وامانيها المتعبة . . !
 ان حرية الاقتراع تعيش في هذه الاصفاد .
 ا - الاقطاعيات والتفتيش . وقد ضربنا من واقعها مثلاً . .
 نعتقد انه يتكرر في كل ضيعة وتفتيش .
 ب - الرغبة العسامة في التزييف . .
 وهي تبدأ من رجل البوليس - وتنتهى عند رئيس الحكومة .
 أما رجل البوليس الذي يقترب هذا الوزر ، فيكون حافزه غالباً
 المجاملة ، أو المعاملة . .

ولسنا هنا نعيب هيئة البوليس، أو نتهمها .. فليسوا
سواء .. اننا نشخص مرضامن أخطر أمراض مجتمعا ،
ولبعض رجال البوليس دور ملحوظ في نشوئه، ومضاعفاته
والبعض الآخر عف كريم

هذا الرجل البوليسى الذى يخون واجبه، ويسبى استعمال
سلطته - يستغل ضعف الجماهير وخوفها ، فيمسك
أزمته بواسطة شيوخ الخفراء فى القرى ، وشيوخ الحارات فى
المدن ، ثم يوجهها حيث يريد .. انه يهدر أمانة الواجب من
أجل مجاملة أو معاملة ..

أما الحكومة التى تجرى الانتخاب - فاما أن تكون حزبية
، أو لا تكون .. فان كانت ، فان الحزبية تدفعها الى توكيد
ذاتها ، ونشر لوائها ، فتزيف - وان كانت محايدة تنتابها
الفلسفة المكيافيلية .. فالغاية تبرر الوسيلة - والغاية عندها،
ايجاد برلمان صالح .. حسب فهمها الخاص لكلمة صالح .. !
والوسيلة هى اكراه الناخبين على اختيار الصالحين ..
الصالحين فى نظرها أيضا وهى تقنع نفسها بأن الشعب جاهل،
ولا يحسن الاختيار .. وهذا حق ..

ولكن ، ما السبيل لان يتعلم ، ويحسن الاختيار ؟
الطريق هو الحرية ، والتجربة ..

دعوه يتخير ، ويخطيء - ثم يتخير ، ويخطيء حتى يبرز اليوم
الذى تنمو فيه تجاربه ، وينضج وعيه ، فيختار فى توفيق وسداد
ماذا يصنع أحدنا حتى يصبح واعيا رشيدا .. ؟

انه يمر بأدوار الطفولة والمراهقة والشباب متعثرا
بالخطايا والاعطاء - حتى اذا بلغ أشده ، ورشده ، واستوى -
أخذ من عشرات ماضيه ، وتجارب أمسه درسا هاديا ،
وعصمة واقية ..

فليعلم رجل البوليس - أن الواجب - أسمى من المجاملة ،

وأبقى من المعاملة .. وليتق الله في أمته التي قطعت في ممارسة الحياة النيابية سبعة وعشرين عاما ... ثم كأنها تبدأ اليوم .. بل كأنها لم تبدأ بعد .. !

وليعلم الحاكمون أن الخطأ وسيلة الصواب .. ولا بد أن نخطئ اليوم ، لنصيب غدا . وأن الحاكم الذي يزيف إرادة الأمة إنما يقف نموها ، ويلاشي شخصيتها .

ج - رشو الناخبين ...

وهذه الرشا التي تقدم للناخبين جهارا علنا تضرب حرية الاقتراع في الصميم ..

وقد تسأل : اليس الناخب الذي يبيع ثقته بدراهم معدودة يصنع ذلك مختاراً ، ويصوت في حرية .. ؟

والجواب طبعا - لا - لان الاكراه ليس فقط للقوة ، بل هو ايضا للضرورة ... وهذا الذي استكرهته ضروراته على بيع صوته - مكره لا مختار ... ففضوا عن عنقه أغلال ضروراته ، وحاجاته .. والى أن تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فيجب أن تحرم الرشا في الانتخابات تحريما زاجرا ... وتشرع عقوبة مؤدبة لا للأخذ - بل للمعطي - فالمرشح الذي يثبت عليه أنه رشا ناخبه يحرم من حق الترشيح ثلاث دورات متتاليات من تاريخ الجريمة لعله يتذكر أو يخشى ، فإذا عاد - حرم هذا الحق الى الابد .

من كان منكم لم ير .. فقد رأى آخرون ، مرشحا غير محترم .. كان سيصير نائبا محترما .. ! يقف امام لجنة الاقتراع بأحد أقسام البوليس ، ويشطر الجنيه شطرين ، ثم يعطى للمقترع نصيبه ، ويرسل معه رسولا ، يتأكد من انتخابه ، فإذا عاد تسلم نصف الجنيه الثاني ... !

يحدث هذا - علنا ، وأمام قسم البوليس وبعض رجاله .. ان نصف الجنيه كان في المعارك الانتخابية الأخيرة ، خطيبها

الساحر ، وفارسسها المغوار ، وسيظل كذلك حتى نقضى عليه،
أو يقضى علينا .. !

وبعد ، فان كثيرين يحلو لهم أن يعزو فشلنا القومي الى ضعف
الرقابة البرلمانية على الحكومة .. ولكن أية رقابة هذه التي
نتهمها بالضعف ، اذا كان البرلمان نفسه لم يوجد بعد .. ؟

ان الحياة البرلمانية الحرة الطليقة المنتجة - لا تزال مقترنة
بالسلاسل التي ذكرناها ، والتي نعيدها لك كي لا تنسى ..

ا - القيود البرجوازية ..

ب - نفوذ التفاتيش ، وآلهة الاقطاع ...

ج - اضرأء الناخبين بالرشوة

د - الرغبة التامة في التزييف

هـ - ضعف الايمان بصلاحية الشعب للاختيار

و - الدوائر المفلقة ...

ز - قوائم الترشيح ، وسيطرة العصبية ..

وحدث نتيجة لهذا ، ان نظام « حكم الاسر » الذي كان قائما
في العصر البدائي وفي الامبراطورية الرومانية القديمة .. صار هو
الحكم القائم في مصر .. !

فالذين يسرون الانتخابات بأموالهم ونفوذهم هم حملة
« السندات » وابناء الذوات .. والبرلمانات عندنا لاتمثل الشعب
كما تمثل الاسر الكبيرة ، والبيوتات الشريفة .. واذا كان
البرلمان هو الذي يثمر الحكومة استطعنا ان نعرف نوع الحكومات
التي تتعاقب علينا ..

لقد طال بنا الجدل ، والخلاف حول لون الحكم في بلادنا .. اهو
دايمقراطي .. ؟ أم هو اتقراطي ؟

ولكن بعد استعراض الوضع النيابي عندنا على هذه الصورة

لا نشك في أنه لا ديمقراطى - ولا أتقراطى ...
انه شيء آخر استعمرناه من القدم - هو بالأتقراطية اشبه -
واسمه يا أبناء وطنى - حكم الأسر ...

ولقد كان الركود ، والاهمال أثرا محتوما لكل انتخابات تجرى
على النمط الكريه الذى شاهدناه حيث تثمر ندوات أعيان ..

خطر لى أن أقف على مدى اهتمام الاعضاء بحضور جلسات
البرلمان .. ومددت يدي نحو المضابط أسألها وأستفتيها ..
فوجدت حشدا كبيرا من النظائر والاشباه لهذا الاحصاء الذى
ستقراه الآن .. وأنا أنقله اليك من مجموعة مضابط دور الانعقاد
العادى الواحد والعشرين فانظر :

رقم الجلسة نسبة الغياب

الرابعة ٥٤ شيخا

الخامسة ٣٠ شيخا

السادسة ٥٠ شيخا

السابعة ٤٠ شيخا

جلسات تعرض فيها سياسة الامة ، ومشروعاتها .. ثم يغيب
عنها خمسون عضوا - أو أربعون

كيف يحدث هذا ؟ وهل كانت مشاغل حضراتهم على ميعاد
حتى يتغيبوا جميعا .. ؟

لعل حضرات الاعضاء حريصون على وقتهم ، فهم لا
يضيعونها في حضور جلسات لا جدوى لها ...

وتعقبت المضابط ، وواصلت البحث خلالها فوجدت أن الجلسات
التي تنظر فيها المشروعات الجليلة الخطيرة المخرجة تظفر
بنسبة كبرى من الغياب في احيائين كثيرة .. وهنا يكون
التغيب طبقا لخطة مرسومة لوقف المشروع وتعويقه حين

يصير العدد غير قانونى . أو فرارا من التورط فى مخالفة الحكومة ومعارضتها .. !

واللجان البرلمانية هناك غليظة الاحساس وبطيئته بحاجة الشعب وآلامه .. ولانكاد نلتمس دليلا لذلك .. حتى نفر من كثرة الأدلة وازدحامها .. وحسبنا مثلا مشروع قانون تقدم به الشيخ المحترم - محمد خطاب بك بشأن استعمار الاراضى المستصلحة ..

ان قصة هذا المشروع . قصة كثير من المشروعات الصريخة التى اتخذت من سراى البرلمان ضريحا .. !

وفى هذه الخطوات تثوى قصته ، وقصتها ...

(١) قدم المشروع فى ١٨ اكتوبر سنة ١٩٤٥

(٢) عرض على خمس اجن - الاقتراحات ، المالية ، الشئون ، المالية مرة اخرى ، العدل رقم ٢

(٣) اختصر من ٤٨ مادة الى عشرين مادة

(٤) لا يزال المشروع تائها حيران ، منذ عام ١٩٤٥ الى عام سنة ١٩٥١ .. ونحن نخط هذه السطور ، وقد حددت له جلسة يقرر عليه فيها من مجلس الشيوخ ولكن احساسنا يرفض التفاؤل .. ونتوقع ان يرتطم المشروع فى صخرة .. او يسقط فى حفرة .. لماذا ؟

لنفس الاسباب التى جعلته يهمل ، ويدس فى الاضابير كل هذه الاعوام !

وتتلخص فى أن المشروع شعبى يهدف الى تحريم بيع الاراضى الحكومية التى تستصلح ، للمالكين .. وبيعها فقط بوسائل ممكنة للمعدمين الذين لا يملكون شيئا .. !

لقد حدث أن كانت الحكومة تستصلح الارض وتعهدها للزراعة - فيقفز بعض الكبراء والباشوات ويشترى بها بأبخس الاثمان .. !!

فيصادف مثلاً - أن يشتري قارون كبير ضيعة واسعة من هذه الأرض بسعر الفدان الواحد عشرة جنيهات ، ليقتنيها ، أو لبيعها بعد حين يسير بسعر الفدان الواحد سبعمائة جنيه .! فلو أن الناخب وجد الفرصة الواعية الحرة التي يختار فيها نائبه ، أو شيخه ، فاختارهم من الذين ينوعون بمثل أعبائه ، وبلوائه . . لما مكث مثل هذا المشروع أكثر من اسبوع .

وإذا كنا نبغض الظروف التي تجعل من الناخب مطية تسخر وتذل . . فلا يفوتنا أن نقول للناخب نفسه: أنت أيضاً مسئول لماذا لا يستعمل المثقفون حقهم في انتخابوا . . ؟

ان الاحصاء الرسمي ينهى بأن الذين ينتخبون من عام ١٩٢٤ - الى اليوم هم الاميون من عمال وفلاحين - واذا ظللنا نحن الذين أخذنا من الثقافة بحظ . متخلين عن التزاماتنا قبل الحياة النيابية ، فهذه أحسن وسيلة ننتحر بها ، وتنتحر بها البلاد

وأخيراً - الحرية . . لا التسامح

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن حريتنا السياسية ، وعن الحريات جميعاً . . حرية النقد ، والفكر ، والمعارضة . . وبقي شيء يجب أن يختم به هذا الفصل . .

لقد لاحظ القارئ أننا لانخص بحديثنا في هذا الكتاب الشعب وحده ، ولا الحكومة وحدها . بل هما معا . . وهذا ثمرة اعتقادنا بأنه في الامكان أن يقوم بين الحكومة والشعب تكافل صادق يحقق للجماهير كل أهدافها . . ولكن الحاكمين عندنا هم الذين لا يريدون . . وحين يتفضلون بمنح الشعب شيئاً من حريته ، فباسم التسامح والعطف . . لا الواجب والحق . . ونريد الآن تحديد مطلبنا بالحرية ، لا التسامح . فالتسامح شيء يعتمد على الرغبة ، والتفضل . . أما الحرية فحق محتوم . .

والتسامح يثمر هبة يمكن استردادها .
والحرية تثمر حقوقا مكسوبة خالدة . .

والحاكم الذى يمكنى من حق باسم التسامح يستطيع أن
يسلبنى نفس الحق باسم التعصب
ويوضح الفارق بين الحرية والتسامح ، وجلان كافحا من
اجل الحرية كافحا باسلا . . هما توماس بين ، وميرابو . .
يقول « بين » :

« ليس التسامح عكس التعصب ، بل هو تلفيق له - وكلاهما تحكم
واستبداد ، فالتسامح يزعم لنفسه حق منح الحرية ، والتعصب
يزعم لنفسه حق منع الحرية (١) »
ويقول ميرابو : -

« ان الحرية تبلغ من القداسة حدا تبدو فيه كلمة
التسامح كأنها نوع من الاستبداد لان السلطة التى يترأى لها أن
تتسامح ، قد يترأى لها أن تتعصب . »
هذا كلام جليل ، ويجب أن نؤمن أعماق الايمان اننا - نحن
الشعب - لن ننال الحرية ، بل وان نكون لها أهلا . حتى تكون
الحرية ، لا التسامح - المحور الذى تدور حوله حياتنا ، وتناط
به وجهتنا .

ان الحاكم الذى يتسامح مع أمته متأله دعى . . وهو لا يوجد
الا فى الامم التى تسودها فلسفة البر والاحسان والخيرات . .
هنالك يتكىء على أريكته ، وينفخ أوداجه ، ويعلن أنه يمنح رعاياه
وعبدانه ما يجود به من حرية وحق . . !

أما الحاكم الرشيد ، فانه يجل الحرية عن أن يبذلها كما
ببذل المنح والصدقات .

ان « توماس بين » يصعد بالحرية الى قمة الاجلال حين
يضرب للتسامح هذا المثل . .

« لو أن أحدا قدم الى برلمان اقتراحا بمشروع قانون يسمح
لله أن يتقبل عبادة اليهود والاثراك أو مشروع قانون يمنع الله من
قبول عبادة اليهود والاثراك لكان ذلك تجديفا في حق الله
وكفرا به . . »

فهؤلاء الذين اتخذوا الحرية لهوا ولعبا - والذين يتجشأون
كل يوم قانونا يسمح للشعب بنصيب ضئيل من حريته
وقانون يحرم عليه منها كثيرا لا يقدرون الحرية قدرها ، وهم
يجدوفون في حقها ، وفي حق الشعب تجديفا وقحا عنيفا . .

ومن أسف أن الشعب هو الذي يحرضهم على ذلك . . !
فأفراده في تعاملهم المادى والادبى يقيمون هذا التعامل على
أساس من التسامح لا الواجب ويبدو ذلك واضحا في مسائل
العقائد والتقاليد والفكر . . فأقصى ما نسمح به لأنفسنا فيما
يمس هذه - هو التسامح ، والتسامح كثير . . !

ومنشأ هذا التزمت أننا ضعفاء ، فاقدو الثقة بأنفسنا ،
وإذا كان فاقدا الشيء لا يعطيه فقد عجزنا عن الثقة بما في الحقائق
من قوة ذاتية تكفل لها الفلبة والبقاء . ومن ثم جعلنا وسيلة
حمايتها الاملاء ، لا الاقناع . . والتسليم لا الاقتناع . . وحرمانا
الفكر حقه في الحرية ، ومنحناه قليلا من التسامح . وبسبب
هذا الغباء نضبت الحياة من تقاليدنا وافكارنا .

يا ليتنا نصغى لهذا النبأ ونغنيه . . .

فقد ذهب الى الرسول عليه السلام نفر من أصحابه ، وقد
استطيرت البابهم روعا ومخافة وقالوا له :

- يا رسول الله . أن أحدا ليجد في نفسه مالا أن يحترق حتى
يصير حممة ، أيسر عليه من أن يتلفظ به . . مشيرين بهذا

الى ما كانوا يجدونه في أنفسهم من شك عاصف في الله ، كما وضحت ذلك رواية أخرى للحديث .

فأجابهم الرسول :

— الحمد لله . . ! هل وجدتموه ؟

هذا صريح الايمان . !

هنا رسول كريم يدرب الناس على الحرية ، لا التسامح

لقد كان قادرا على أن يقول لهم : لا بأس ، عفا الله عنكم . .
أو سيغفر الله لكم . وهذا هو التسامح . .

ولكنه كان أكثر اجلالا للحرية — حتى حرية الشك ، والاسترابة
فاعترف بها ، وجعلها محض المعرفة ، وصريح الايمان — وكان
بها حفيا . . !

ذلك أنه يعلم أن الحرية حق للناس ، وأن تمتعهم بهذا الحق
كاملا غير منقوص ، هو أفضل الوسائل لترقية انسانيتهم ،
وتعلية نزعاتهم ، وهدايتهم الى الحق ، وتثبيتهم على الهدى —
ويعلم ان احترام حرية البشر ينعش فيهم كل قوى الفضيلة
والخير والجمال ، فلم يتسامح معها — بل سلم بها ، وزكاها .

ان اليوم الذي يرفض فيه الشعب أن يساوم على حريته
أو يتنازلها من أكف التسامح ، والاحسان — لهو اليوم الذي يبلغ
فيه رشده ويقف على قدم السوائية الفاضلة مع الشعوب
الحرّة ، والعالم المتحضر الكريم

وقبل أن ننهي هذا الدفاع عن الحرية نقول : انه اذا كان في
تصويرنا للكبت الذي نعانيه مبالغة — ، فهي مبالغة طفيفة .
واذا كان فيه قصور ، فهو قصور كبير . . !

ونحن على العالين لانفسى ابداتلك الجهوسود النبيلة التي بدلت
منسنة ثورة «١٩١٩» في سبيل الحرية ، واذا كان الاستعمار
الرجيم قسسد فبطد عزم هذه الجهوسود وضالها ، فلا بأس ،
ولنبدا من جديد .

واقسد قركنا الحديث من نوع الحرية المرتبطة بغيريزة الاقتناء
الى الفصل الثانى من كتابنا ... من هنا نبدا ... فهناك يستبين
انسا اثمارها وارتباطها الوثيق بحرية العمل وحرية الضمير ..
ان غريزة الاقتناء يناط بها تحرير البشر من اغلال الضرورات
وليس نشاطها كما ذكرنا في حديث الفصل الاول خاصا
بطبقة من الناس دون الآخرين ، كما انه لا يتعمم احتواش
التفائش والضياع ..

ان اقتناء وسائل الحياة الكريمة هو الضرورة الكبرى التي
تهتف بها اليوم حضارة الانسان

وبعد ، هل نحن جادون في نشدان الحرية ؟
اذن ، فلنوجد الشعب الذى يستطيع ان يتقبل امانتها ..
الشعب الذى تثق به الحرية .. ويشق بها .